حكايات من المستقبل

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: حكايات من المستقبل
التأليف: شيماء عادل
موضوع الكتاب: تربية
عدد الصفحات: 128 صفحة
عدد الملازم: 8 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2142
الترقيم الدولي: 978-9921-815-023

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

حكايات من المستقبل

شيماء عادل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمة

أغمض عينيك دقيقتين.....

تخيَّل حياتَك وحياة أولادك بعد عشر سنوات من الآن....

هل تخيلتهم؟ هل تخيلت شخصياتهم؟ هل أنت سعيد بهم؟

والآن اسأل نفسك، هل هذه الصورة التي كثيرًا ما تخيلتها واقعية وممكنة الحدوث؟ هل كل ما تمنيته لابنك أو ابنتك في المستقبل تسعى إلى تحقيقه من الآن؟

هل ابنك الذي تخيلته طبيبًا ناجحًا، متزنًا نفسيًّا، واثقًا من نفسه، سيصير هكذا فعلًا مع طريقة تربية تعتمد على العنف والضرب والاستهزاء؟ بالطبع لا...

فالحياة مثل الطريق متعدد الاتجاهات، خبرة الإنسان وتجاربه في الحياة هي التي تفرضُ عليه اختيار الطريق ليسير فيه إلى النهاية.

فنحن بدورنا آباءً وأمهاتٍ، نُشكِّل جزءًا كبيرًا جدًّا من خبرات أبنائنا وتجاربهم في بداية مشوارهم في الحياة...

قال رسول الله ﷺ: **«ما من مولود إلا يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه»**.

فإذا نجحنا بتوفيق الله في إنشاء تجارب وخبرات جيِّدة لأولادِنا؛ ستكون النتيجة النهائية مُرضِيةً إن شاء الله..

ولكن إن لم ننتبه، وألهتنا الحياة بتفاصيلها عن التركيز فيما يتعرَّضُ له أولادنا، وساهمنا في وضعِهم في تجارب غير صحية؛ ستكون النهاية في المستقبل غير ما تمنيناه....

فالواجب على كل أمٍ وأب رزقهما الله بهديَّة الذريَّة شكر هذه النعمة، والحفاظ عليها، والعملِ على تنشِئتها تنشئة صحية قدر المستطاع.

وهذا سيتم بوضع الهدف الذي يريدون الوصول إليه، ومن ثمَّ وضع خطة مناسبة للوصول إلى الهدف المرجوَّ...

في هذا الكتاب سأعْرِض بعض القصص الخيالية، لكنها في الحقيقة واقعية وممكِنة الحدوث، لحياة أشخاص على ألسنتهم، فيعرِضُون ما تعرَّضوا له في خلال طفولتهم، وكيف أثَّر فيهم ما تعرَّضوا له من أهلهم بالإيجاب أو بالسلب في حياتهم الحالية.

فكم مرة -أنت أو شخص تعرفه- تتذكَّر أحداثًا حدثت لك في الماضي مع أهلك أو أصدقائك أو في مدرستك الابتدائية، وأثَّرت في شخصيتك تأثيرًا كبيرًا.

> أنت الآن تعيش في ماضي أطفالك. فأحسِن صنع ذكرياتهم.

بعض الناس لا يستطيعون التعافي من هذه الأحداث والخبرات حتى الآن، وبعضهم استطاع التغلُّب عليها بالاستعانة بالله، لكنها أخذتْ منهم مجهودًا ومشقةً كبيرة.

ولهذا سأركِّز في هذه القصص على بعض

الصفات المهمة في شخصية الإنسان، وكيف التصقت هذه الصفة في شخصيته إلى الآن؛ حتى ينتبه المربِّي إلى بعض الأخطاء في طرق التربية، والتعامل مع الطفل...

لعل هذا الكتاب يكون سببًا في تغيير بعض رجال ونساء المستقبل للأفضل بإذن الله.

كيف تستفيد من هذا الكتاب؟

الكتاب مكوَّنٌ من عدّة قصص، كل قصة تتحدث عن صفة أو تحدٍّ معين، وكيف تعامل معه الأب والأم....

فيجب قراءة كل قصة على حِدَة؛ فكل قصة منفصلة عن الأخرى.

التعليق:

بعد كل قصة ستجد التعليق على القصة، هذا التعليق سيُركِّز على معظم الأخطاء، أو طرق التعامل التي تعامل بها الأهل مع أولادهم، وأثَّرت فيهم حتى أدَّى بهم الحال إلى ما هم عليه الآن.

المطلوب من المُربِّي أن يقرأ كل نقطة من نقاط التعليق جيّدًا، ويُفكِّر فيها قليلًا، هل هذا الخطأ يرتكبه مع الطفل في أثناء التعامل معه أم لا؟

أجِبْ بصراحة:

بعد التعليق سيكون هناك أسئلة مُوجَّهة للقارئ؛ لتسأل نفسك مجددًا

وتكتشف إذا كُنتَ تقع فعلًا في هذه الأخطاء التي ارتكبها أبطال القصة أم لا...

فإذا أعطيت لهذه الأسئلة بعض الوقت للإجابة، فتكون قد استفدت من هذا الكتاب أقصى استفادة، وتكون قد صارحت نفسك بعيوبك ومميزاتك بشفافية...

أدعو الله أن تفيدكم هذه القصص، وتعينكم على تربية أولادكم بإذن الله...

والآن أترككم مع أول قصة...

الأم ترخي والأب يشد

«عرفت إننا كنا غلطانين بس بعد فوات الأوان».

عندي توأم أحمد وأميرة... كنتُ وما زلت مثل أيَّة أم تحب أولادها أكثر من نفسها، لكن الفرق بيني وبين باقي الأمهات أن هذه العاطفة كانت تحكمني، لدرجة كبيرة، أظن أنها أكثر من الطبيعي.

ساعد في ذلك أن زوجي كانت شخصيته مختلفة تمامًا عني، فكان شديد الطبع، بالتأكيد هو أيضًا يحبهما؛ لكنه لا يحب أن يُظهِر ذلك.

منذ كانا صغارًا كان زوجي يتعامل معهما بجفاء؛ ظنًّا منه أن هذه الطريقة في المعاملة تجعلهما أقوياء أو «ناشفين» كما يقول، لم أره مرة يحضنهما أو يعطيهما قُبلة ما قبل النوم.

حاولت الحديث معه كثيرًا، لكن رده كان: «**أنا بحبهم أكتر ما إنتي بتحبيهم، بس لازم يطلعوا ناشفين، مش متدلعين**».

هذه الطريقة في التعامل أدت إلى إشفاقي عليهما من هذا الجفاء والقسوة، ومحاولة تعويضهما عن حنان الأب.

كنت أكره تعنيفهما، وأتجنب إعطاءهما النصائح والتوجيهات، فكان والدهما يقوم بالواجب وأكثر.

فمنذ بدءا الإدراك وفهم ما نقوله، بدأ التعامل معهما بهذه الطريقة، فكان لا يسمح أبدًا بالخطأ أمامه...

> «لا تربوا أبناءكم كما رباكم آباؤكم، فإنهم خُلِقوا لزمان غير زمانكم».

كان يتعامل بيده أكثر من لسانه، فالضرب هو الطريقة الأولى للحوار، وبعدها يأتي التعنيف بالكلام، وفي النهاية إعطاء الدروس والمحاضرات الطويلة.

كنت عندما أتحدث معه في هذا الأمر، كان يجيب برده المشهور:

«ماحنا كلنا اتربينا كده، وكلنا زي الفل أهو».

أعتقد أنه مَن تربَّى بهذه الطريقة لم يصبح «زي الفل» كما يقول؛ بل أصبح إنسانًا معقَّدًا، يُخرج كبته في من هو أضعف منه، وهم أولاده.

عندما أيقنت أنه لا حلَّ لتغيير هذا الأسلوب في التربية، كنتُ أرى أنه من واجبي أن أرخي قليلًا؛ حتى لا ينكبت الأولاد وينفجرون، فكنت أتركهما يفعلان ما يحلو لهما.

لكن في النهاية أنا بشر، ولا أستطيع تَحمُّل كل الأخطاء التي تقع أمامي وأنا هادئة طَوال الوقت، فهما يأمَنَان عقابي، ويفعلان ما يشاءان، فكثير من الأوقات أكون مضغوطة، ولم أستطع تمالك أعصابي، ولكنّي في الوقت ذاته أخذتُ عهدًا على نفسي ألّا أُعنفهما، ويبقى العنف من طرف واحد فقط، فكل ما كنت أقوله لهما هو:

«لما بابا ييجي هقول له»..

«لو بابا عرف إنتَ عارف هيعمل فيك إيه!».

كانت هذه الكلمات كفيلة بأن تُوقفهم عن التمادي في الخطأ، فاعتبرتها كلمات سحرية، وفي نفس الوقت سهلة.

فأنا لا أشد عليهما وأتسبَّب لهما في الحزن، وألقي كل المسؤولية على والدهما.

فأصبح والِدَهُما يقوم بدور الوَحْش أو «البعبع» في البيت، الذي عندما يسمعون فقط سيرته وليس حتى صوته؛ يتوقفون عن الخطأ.

وفي المقابل كنت أقوم أنا بدور الأم الحنونة التي تحب أولادها، وأولادها يحبونها...

لا أخفي عليكم أنني كنتُ مستمتعة وسعيدة بهذا الدور، أيَّة أم تحب أن تشعر أن أولادَها يحبونها.

بدأ الأولاد يكْبُرون، وتَكْبر معهما مشكلاتهما، واعتدْنا على هذه الطريقة.

فَهِمَا الاثنان جيّدًا طريقة وشخصية كل واحد فينا...

لم أكن أعرف أن الأطفال أذكياء لهذا الحد؛ فكانا يتمتعان بشخصيتين وطريقتين: شخصية أمامي، وشخصية أخرى مختلفة تمامًا أمام والدهما، فيتصرفان أمامي بصورة، ويتحولان أمام والدهما.

أتذكر يومًا كانا في شجارٍ عنيف على التابلت، وجاء والدهما وضربهما، وأخذ منهما التابلت عقابًا لهما لمدة أسبوع...

في اليوم التالي عندما ذهبَ والدَهُما إلى عَمَله، بدأا يترجانني أن أترك لهما التابلت ساعة دون معرفة والدهما، ووعداني ألّا يتشاجرا مرة أخرى طوال حياتهما... ومع المحايلة والبكاء للأسف وافقت، وكان هذا الخطأ هو بداية النهاية، لا أعرف كيف اشتركتُ معهما في هذه الكذبة؟ فكنتُ أشعر شعور «الحرامي اللي عامل عاملة».

وللأسف بعد أن كان خطًا لمرة، أصبح يتكرر مرارًا وتكرارًا لكن بصور أخرى، فكم مرة عاقبهما والدهما وكسرْتُ عقابه، وكم مرة أخطآ؛ وأخفيت خطأهما عنه، وكم مرة كذبت عليه من أجلهما.... وفي النهاية تعوَّدنا على هذه الطريقة.

كبَرَ الأولاد، ودخلا في مرحلة المراهقة والبلوغ...

سلوكهما تغير معي كثيرًا..

لم أعد أشعر بحبهما كما كنتُ سابقًا، هل كانا يمثلان عليَّ؟

بدآ يتأففان من الجلوس معي...

أصبحَتْ لهما حياتهما الخاصة، غير المسموح لي دخولها..

لم يكن هناك احترامٌ لي...

كانا فقط يلجآن إليَّ عندما يريدان أن يفعلا شيئًا لن يوافق عليه والدهما، ويريدانني أن أتستَّر عليهما.

كيف حدث هذا وأنا طوال الوقت كنت أدلِّل فيهما، وأحاول تلبية

رغباتهما؛ حتى يَشعُروا بحبي لهما، كم تحمّلتُ من مشكلات كبيرة بيني وبين والدهما بسببهما.

الآن أحمد يتعاطى السجائر ويخفيها عن والده، ولا يستحي أن يخفيها عنّي، فأنا رأيتُها وشممتُ رائحتها أكثر من مرّة، لكني في حالة أضعف بكثير من مواجهته، حتى هو لم يهتم أصلًا برد فعلي.

أميرة تخرج بالميك أب عندما يكون والدها في الخارج لأنه منعها من ذلك، لكنها لا تهتم إذا كنتُ أراها أم لا.. لا أعلم ماذا تفعل في الخارج، ومن تقابل، حتى لا أجرؤ على سؤالها والنقاش معها.

ببساطة بعد ما كنتُ أريد أن أكون أنا الأولى في حياتهم، وسعيت لذلك.... أصبح الآن لا وجود لي في حياتهما تمامًا.

التعليق:

المشكلة الكبيرة في القصة والتي يقع فيها الكثير من الآباء والأمهات هي: الاختلاف في طريقة تربية الأولاد.

تجد كلًّا منهما له طريقته الخاصة في التربية التي يقتنع بها، ومؤمن بأن نتيجتها أفضل، ولا يسمع إلى وجهة نظر الآخر، فتجده يتعامل مع أولاده بطريقة غير طريقة الطرف الثاني...

فيضع الاثنان مجهودهما وتركيزهما كله على إثبات صحة وفاعلية طريقتهما، والانتصار بالرأي أمام الآخر، وينسَيان تمامًا أن هدفُهما واحد؛ وهو تربية الأولاد تربية صحيحة.

فنتيجة لهذا الصراع يتعلم الأطفال، ويتكيَّفون على طريقة كلٍّ منهما، فتجد الطفل يتظاهر بالطاعة أمام والده الشديد، ويطلب من والدته المتساهلة الطلبات الممنوعة... وهكذا...

الطفل ذكي جدًّا، ويعلم جيّدًا كيف يتعامل مع والديه بالطريقة التي تناسبهما حتى يأخذ غرضه.

فلنسرد الأخطاء التي حدثت في هذه القصة بتفصيل أكثر:

- إصرار الأم والأب على طريقتهما في التربية:

كلٌّ من الأم والأب مؤمن بأسلوب معين في التربية لأولادهما، فبدلًا من أن يشتركا في الهدف الواحد، وهو: إصلاح وتربية أولادهما، فتفرقا إلى فريقين، كلٌّ منهما يريد أن يثبت للآخر أن طريقته هي الصحيحة، وكان شغلهما الشاغل هو إفشال الآخر، ونسِيَا الهدف الرئيسي.

ولذلك من الطبيعي أن تجد الأم تُدلِّل حين يَشُدُّ الأب؛ حتى تُبيِّن أنها الأم الحنونة، وتجد الأب يَشُدُّ عندما تُدلِّل الأم؛ حتى يُشعِرهم بالانضباط والحزم.

ومن الطبيعي أيضًا أن تجد الأولاد في هذا البيت ذي شخصيتين، كل شخصية مناسبة للتعامل مع واحد من الآباء.

- الكلمة المشهورة «اتربينا على كده»:

من الكلمات التي سمعتها بالتأكيد من أي مُربٍّ في زمننا هي **«احنا اتربينا كده، وبقينا كويسين أهو»** أو **«محنا كلنا اتضربنا واحنا صغيرين»**.

لكن يبقى السؤال هو: هل هو متزن نفسيًّا بالفعل مثلما يتخيل؟ هل تربية الماضي من الممكِن أن تُطبّق في وقتنا الحاضر؟ هل الأطفال زمان مثل الأطفال الآن؟

فمع اختلاف الزمن وتطور التكنولوجيا، وتمكُّن الأطفال من معرفتهم بما حولهم أكثر بكثير مما سبق، وانفتاح العالم، وتأثر الأطفال بما يشاهدونه، كل ذلك أدَّى إلى تغيير في صفات الجيل الحالي؛ مما أدى إلى تعقيد عملية التربية أكثر بكثير مما سبق.

فلذلك أصبح من المهم التركيز أكثر على إيجاد وسائل للتربية، ملائمة للوقت الحاضر، وممارستها مع أولادنا، ولا نكتفي فقط بتكرار وسائل التربية القديمة التي من الممكن ألّا تُعطِي نتيجة جيدة في عصرنا الحالي.

- الضرب والإهانة:

استكمالًا للنقطة السابقة، يجب توضيح آثار استخدام العنف الجسدي واللفظي مع أولادنا؛ حتى نعرف مدى خطورته، وتأثيره عليهم:

أثبتت الدراسات أن تعرُّض الطفل للعقاب البدني أو اللفظي، يؤثر تأثيرات سلبية في المخ والصحة النفسية للطفل، فيؤدي إلى ضعف النمو العقلي، وضعف في القدرة على التواصل والكلام، وقلة الثقة بالنفس، وقلة الأداء في الدراسة، واضطرابات قلق واكتئاب.

ويجب أن تعرف جيّدًا أنه ليس معنى أن الطفل تعافى من ألم الضربة، فإن

تأثيرها قد انتهى؛ بالعكس يظل تأثير الضرب والإهانة في عقل ونفس الطفل، ولا يستطيع التعافي منه لسنوات، وربما لا يستطيع التعافي منه طوال حياته.

فبالتأكيد قابلت الكثير في حياتك مِمَّن ظلَّت تربية آبائهم لهم لها تأثيرٌ واضحٌ على شخصيتهم، وبعضهم مصاب بعُقَد بسبب طفولتهم.

- التدليل:

ليس معنى أن العقاب الجسدي والنفسي (physical punishment) له أضراره، فنلجأ إلى تدليل الأطفال كما فَعَلَتْ بطلة القصة.

كثير من الناس يخلِطون بين المفاهيم، فيعتَبِرُون أن دعوات التربية الإيجابية، ومنع إهانة الطفل وضربه معناها أنه يجب أن نُدلِّل الطفل، ولا نرفض له طلبًا، ولا نقوم بتقويمه، فهذه الطريقة ليست لها علاقة بالتربية الإيجابية، بالعكس هذه الطريقة لا تقل أضرارها عن أضرار الشِّدة والقسوة في التربية.

فعندما تُلبِّي رغبات طفلك كلها مهما كانت، ولا تقوِّم سلوكه فأنت تُنشِئ طفلًا مُدلَّلًا، غير سوي، غير مسؤول، أناني، لا يستطيع حل مشكلاته، لديه مشكلات في التواصل.

فالتربية الإيجابية تدعو إلى الحزم، وتطبيق القواعد، مع إظهار الحب والتعاطف.

- تعمُّد الأم كسر عقاب الأب:

من الأخطاء الكبيرة التي فعلتها الأم في القصة، وعرفت بعدها نتائجها،

وندمتْ عليها، هي: مشاركة الأولاد في كسر عقاب الأب وعدم تنفيذه؛ فيؤدي هذا إلى استهزاء الأولاد بالعقاب، وعدم احترام والدهما وكلمته، وعدم احترام والدتهما؛ لأنها شاركتهما في الكذب على والدهما، إحساسهما بظلم الأب؛ لأنه هو الذي فَرَضَ هذا العقاب، وفي النهاية هما لم يستفيدا من أخطائهما أو لم يتعلما منها.

- عدم الاتفاق على طريقة واحدة في التربية:

من الأخطاء الكبيرة في التربية، والتي يفعلها كثير من الأزواج، ويكون الأولاد هم الضحية: هو عدم الاتفاق على طريقة واحدة في التربية.

كلٌّ من الزوجين لديه وجهة نظر، وطريقة في التربية ولا يودُّ تغييرها أو الاستماع إلى الطرف الآخر؛ فتكون النتيجة أنهما ينسيان الهدف الأصلي، وهو تربية طفل متزن نفسيًّا، ويصبح كل واحد منهما همه هو إثبات أن طريقته هي الصواب، ويحاول إفشال طريقة الآخر، والاستهزاء بها، وتصيُّد أخطائها؛ فيعيشان في سباق، كلٌّ منهما يريد أن يفوز، وينسيان مصلحة الأولاد.

في ظل هذا السباق يعلم الطفل كيف يتعايش مع هذه الطريقة، ويستفيد منها جيدًا؛ فيستغل هذا الخلاف، ويتعامل مع كلٍّ منهم بطريقته.

من رأيي أن الاتفاق على طريقة تربية واحدة، حتى لو كانت طريقة غير جيدة في التربية؛ ستؤدي إلى نتيجة أفضل بكثير من اختلاف الطرق، والعمل على إفشال الآخر.

وأقصد بالطريقة ليس فقط طريقة المعاملة من شدة أو حزم أو تدليل، بل

أقصد أيضًا الاتفاق على الخطأ والصواب، المقبول وغير المقبول في البيت، الخطوط الحمراء.

فالنصيحة التي أستطيع أن أنصح بها هي: أنه يجب الاتفاق على طريقة واحدة في التربية، إن لم يكن هذا ممكنًا بسبب الاختلاف في الشخصيات والقناعات، فليكن المهم عند الأبوين هو البناء معًا، وعدم هدم ما يبنِيه الطرف الآخر، فيعلم الطفل جيّدًا أن الصواب صواب في أي وقت، وأن الخطأ خطأ في وجود أيّ من الأبوين.

- «لما بابا ييجي هقوله»:

كثيرٌ من الأمهات يستخدمْن هذه الجملة للتسهيل على أنفسهِن، فبدلًا من الحزم مع الأولاد، وتعريفهم الخطأ والصواب؛ فتتجنَّب كل هذا وترمي المسؤولية على الأب؛ حتى تظل هي في نظرهم الأم الطيبة التي تحبهم.

الأب عندما يرجع إلى البيت فلديه اختياران ليختار منهما:

إما أن يعاقبهم على أفعالهم التي لم يرها، ولا يعرف عنها شيئًا، ويصبح هو في نظرهم الأب القاسي الظالم غير المحبوب وجوده.

إما أنه لا يهتم بما تقوله الأم (إذا قالت له الأم أصلًا)، وفي هذه الحالة فإن تهديد الأم غير مهم، وأنها تقول كلام لا تعنيه، ومع الوقت لا يهتمون بكلامها ولا تهديداتها.

أجب بصراحة

- متى آخر مرة استخدمتِ كلمة: «أما بابا ييجي هقوله؟»

.....

- الأب يعلق على خطأ أخطأه الطفل، هل تتدخلين وتراجعينه أمام الأولاد أو تقولين «براحة عليه هو معملش حاجة لكل ده» أو «خلاص إهدا مش مهم» عطفًا منك على الأولاد؟

.....

- متى آخر مرة استخدمتِ جملة «فين أيام تربية زمان، كنت مبقدرش أنطق وأرد على أبويا»؟

.....

- هل عندما تكون متوترًا في عملك، أو تكونين متعَبَة أو مضغوطة تُنفِسان غضبكما في الأولاد بضربهم أو الصراخ فيهم؟

.....

- هل تستطيعين أن تقولي «لا» لطفلك دون خوف من ردة فعله؟

.....

- متى آخر مرة منع زوجك المصروف أو الموبايل أو التليفزيون عن أولادك عقابًا لهم، لكنك أعطيتِهم مصروفًا مكانه، أو سمحتِ لهم بمشاهدة التليفزيون، واستخدام الموبايل في غيابه؟

.....

الثقة بالنفس

حياتي تغيرت 180 درجة، والفضل يرجع إلى والدَيَّ...

سأحكي لكم قصتي..

أنا سُهى، في طفولتي كنتُ مثل أيَّة بنت صغيرة ألعب وأجري وأفرح، لكن الفرق بيني وبين أيَّة طفلة في سني، كانت أني كنتُ أقل جمالًا بشكل ملحوظ من قُرنائي.

حينها كنت لا أشعر بأيّ شيء غريب، وكان هذا الاختلاف لا يُسبِّب لي القلق إلا في التجمُّعات العائلية، أو تجمُّعات الأصدقاء، فكنت أسمع دائمًا بعض السخافات المصاحبة بضحكة صفراء بعدها مثل «إنتي طالعة وحشة لمين؟»، «مين عندكوا شعره كده؟»، «مش طالعة حلوة زي مامتك ليه؟»....

> وعي الاختلاف والفرادة، خاصية يتميز بها الإنسان وحده بين المخلوقات كلها، قتل هذا الوعي بحجة أو بأخرى، بشكل أو بآخر، إنما هو نوع من نزع إنسانية الإنسان، ومن الهبوط به إلى مستوى الكائنات غير العاقلة.
>
> (أدونيس)

كنت حينها صغيرة، ولا أفهم المراد من هذه الكلمات، لكن كنت أُلاحظ ردود فعل والديَّ من هذه الكلمات، والرد عليها بطريقة جافة، ودون أيَّة ابتسامة ولو بسيطة... فكنت لا أنتبه، فهناك من يرد عني.

بدأت أفهم المقصود عندما دخلتُ المدرسة، وتعرَّضت للحياة الخارجية، فبدأتُ أسمع كمية أكثر بكثير من هذه السخافات والمقارنات، كل يوم أعود إلى البيت، وقد تلقَّيت جميع أنواع التنمُّر من شكلي ومن شعري وهيئتي...

كرهت المدرسة كثيرًا، بل كرهت العالم الخارجي كله!!

أمي لاحظت ذلك دون أن أقول لها شيئًا، بل أظن أنها كانت متوقعة ذلك من قبل، فنادتني وقالت لي:

– إنتي عارفة إن ربنا اللي خلقنا كلنا؟

– أيوة.

– عارفة إن ربنا عدل بيننا كلنا، يعني إدّى لكل واحد حاجات ومنع عنه حاجات، بحيث كلنا نكون متساويين في الآخر؟

– إزاي؟

– يعني ساعات بتلاقي واحد تخين وواحد رفيع، واحد غني وواحد فقير، واحد سليم وواحد تعبان، واحد بيمشي وواحد بيعرج...

– آه.

– أكيد الغني ده معاه فلوس، لكن ممكن يكون ناقصه حاجة تانية عند الفقير، ربنا بيعدل بيننا كلنا، وبيختبرنا علشان يعرف مين هيرضى باللي ربنا إداهوله، ومين مش هيرضى....

يعني مثلًا إنتي شايفة عندك إيه اللي ربنا إداهولك مميز؟

– بحب الناس؟

– أيوة، طيبة وبتحبي الناس، ومرحة وذكية، وحاجات تانية كتير، ده غير النعم الكتير اللي ربنا إداهالك، وممكن تكون ناقصة عند حد تاني، زي نعمة النظر والسمع والرجل اللي بنمشي بيها، وغيرها كتير منقدرش نعدهم...

– ليه بتقوليلي كده؟

– علشان أنا عارفة إن فيه ناس بيضايقوكي في المدرسة.

– عرفتي منين؟

– أنا بعرف من غير ما تقولي، بحس بيكي.

شعرت حينها أن والدتي قريبة من قلبي، وتشعر بكل ما بداخلي، وتُقدِّر كل مشاعري ولا تستهتر بها!

بعدها بدأتْ والدَتي تشتري لي ملابس معينة مناسبة لشكلي، وتُصفِّف لي شعري بطرق جديدة؛ بحيث تُظهِر جمالي أكثر، أو على الأقل سأشعُر أنا بتقبُّل نفسي أكثر.

كان والدايّ ينتهزان أيَّة فرصة لتشجيعي، أسمع مدحًا كثيرًا منهما، كانا يمدحان خطِّي، وكتاباتي، وسلوكي، وواجباتي الدراسية، وكل إنجاز لي.

كنتُ أستمتع بوجودي في المنزل، على العكس من الخارج؛ فكنت أكره الخروج ومقابلة الآخرين، كنتُ أتمنى أن أختفي إذا نظر إليَّ أحد.

والدِي لاحظ ذلك، فكان يتعمَّد إعطائي الحنان والحب، وكان يُشعرني بأني أجمل بنت في العالم.

في عطلة نهاية الأسبوع يأخذني إلى التنزُّه إلى الخارج وحدنا، ويشتري لي الآيس كريم الذي أحبُّه.

كنتُ سعيدة باهتمامها، وكنتُ أشعر أنِّي أميرة داخل البيت، لكن خارج البيت لا يزال هناك كابوس بالنسبة إليَّ.

مرَّت الأيام ووالدَاي يبحثان عن طريقة لزيادة ثقتي بنفسي؛ حتى لا أهتم بكلام الآخرين، بدآ يبحثان عن مهارة لأتميز فيها.

جربتُ الرياضة، والرسم، والكمبيوتر، والكتابة، في كل مرة كُنتُ أخفِق وأشعر بالإحباط، لكن سرعان ما أجد والدتي تدعمني، وتبحث لي عن شيء آخر لأجرِّبه، لم تيأس مني ولو لحظة واحدة.

في يوم كانت هناك حفلة في المدرسة لتكريم الأمهات، كنت حينها في الصف الخامس، وبالصدفة الطالبة المسؤولة عن إلقاء المقدمة في الحفلة اعتذرت بسبب مرضها، عَلِمَت والدتي هذا، فقالت لي:

– سُهى حبيبتي، إنتي عارفة إن مفيش حد يعمل فقرة المقدمة في حفلة المدرسة؟

– آه عرفت، ليه؟

– أنا أول ما سمعت الخبر ده، وإنهم عايزين حد مكانها بسرعة فكرت فيكي على طول.

– لا طبعًا، مستحيل.

– ليه؟ فاكرة لما كنتي بتقرَئي الشعر مرة علينا؟ وفاكرة الحفلة اللي عملناها مرة لما تيتة رجعت من الحج، والكلام اللي قلتيه؟ إنتي كنتي بتتكلمي حلو أوي، أنا إزاي مفكرتش في الموضوع ده قبل كده؟

> افعل الأشياء التي تحب فعلها حقًّا، ابحث دائمًا عن رغبتك الحقيقية، اصنع الاختلاف والتميز. الطريقة الوحيدة لعمل أشياء عظيمة هي أن تُحب ما تفعله.
>
> (ستيف جوبز).

في البداية رفضتُ بشدة، فأنا لا أريد أن ينظر إليَّ أحد، فماذا لو كنتُ أنا التي على المنصة، وينظر إليَّ كل الحضور في المدرسة دفعة واحدة، لكن الحقيقة عندما وجدتُ أمي محبطة من ردة فعلي، وافقت من أجلها؛ فربما أستطيع أن أرد لها بعض الجميل في كل ما تفعله معي، فهي لا تستحق مني ألّا أحقق رغبتها، وأسبِّب لها الإحباط.

وجاء يوم الحفلة، وصعدت على المنصة وأنا أتمنى أن تبلعني الأرض، فعندما أنظر إلى وجوه الطلاب أجد الدهشة والتهكُّم في أعينهم، ربما لأنهم مندهشون من جرأتي في الصعود أمام الناس في ظل كل التنمر الذي أتعرَّض له...

بدأتُ إلقاء الكلمة، وقررت أن أركِّز في كلمتي ولا أستمع لأحد، وبدأتُ الكلمة وانسجمت، لدرجة أني لم أستطع أن أسمع من حولي فعلًا، والغريب أنِّي وجدتُ كل الحضور ينصتون إليَّ باستمتاع، كأنَّ هذه أول

خطبة يستمعون إليها، بعدما انتهيت وجدت تصفيقًا حادًّا، ودموع الأمهات تتساقط، لم أرَ هذا المنظر من قبل.

الطلاب والمعلمات كانوا مندهشين جدًّا من أدائي، والدايّ كانا في قمة السعادة، شعرت بالفخر لأول مرة وسط الناس.

نزلت من على المنصة إنسانة جديدة غير التي صعدتْ على المنصة منذ قليل.

الآن عرفت هوايتي والمهارة التي عندي، أصبحتُ متميزة في الإلقاء، يطلبونني في المدرسة في جميع النشاطات التي تستدعي الإلقاء...

الآن بدأتُ أمشي مرفوعة الرأس، ونسيت عيوبي، وفقط ركَّزت على مميزاتي؛ حتى أصبحت لا أكترث بالتنمُّر من الطلاب في المدرسة، أصبح لي هدف في الحياة، أشعر بالتقدير كل يوم مِمَّن حولي، وأحاول أن أطوِّر من نفسي مع تشجيع والديَّ لي...

والآن أحكي قصتي وأنا طالبة متميزة في كلية الإعلام وعندي طموحات كبيرة...

التعليق:

مِن رأيك ما سبب تحوُّل حياة سُهى 180 درجة؟

منذ الطفولة، عندما شعر الوالدان بأن هناك مشكلة ما، حاولا إصلاحها من خلال بعض النواحي:

– الاعتراف بالمشكلة:

عندما شَعَرتْ سُهى بأن جمالها ناقصٌ، وصرَّحت بهذا لوالدتها، لم تُنكرِ الأم المشكلة، لكنها حاولت معالجتها بطريقة اللبس أو تسريحة الشعر كي تتقبَّل البنت شكلها.

إذا أنكرت الأم وقالت لابنتها إنها جميلة وهذا كلام خاطئ، كانت ستشعر البنت بأن لا أحد يشعر بها أو يفهمها، ومن الممكن أن تفقد ثقتها في والدتها.

فمن أهم الأشياء التي يجب أن يقدمها الآباء لأولادهم هو التعاطف مع مشاعرهم، حتى لو كانت سلبية، فليس من المنطقي أن تشعر البنت بنقص معين، وأنا أرد عليها بأن لا ليس عندك نقص، بل واجب عليَّ أن أتعاطف مع مشاعرها، وأحاول بعدها أن أجد حلولًا مناسبة لتقليل هذا العيب والنقص.

– الحب غير المشروط:

كل أم أو أب يحبان أولادهما بلا أدْنَى شك، لكن هل سألت نفسك يومًا لماذا تحب ابنك؟

هل لأنه متفوق دراسيًّا؟ هل لأنه مطيع؟ هل لأنه لا يجلب مشكلات؟ هل لأنه ذكي؟ هل لأنه جميل؟

هل سيزول الحب بزوال تلك الصفات؟ بمعنى أنك لن تحبه إذا لم يُطِعْك، أو إذا أخذ درجات قليلة في الامتحان؟ بالطبع لا...

لكن هل تفعل ذلك فعلًا؟ والأهم من ذلك هل يشعر طفلك بأن حبك له غير مرتبط بتصرفاته وسلوكه؟

فيجب أن تُظْهِر لطفلك أنك تحبه هو لأنه ابنك، ومهما فعل فأنت تحبه، لا ينقص الحب بأي تصرف مهما كان، حتى إذا فعل تصرفًا خاطئًا، فأنت لا تحب هذا التصرف وليس هو شخصيًّا.

فمثلًا إذا تشاجر مع أخيه، فلا تقل له: أنت سيئ، لكن تصرفه وشجاره هو السيئ، وهو الشيء الذي لا تحبه.

- التشجيع:

قام الوَالِدَان في القصة بتشجيع سُهى دائمًا، مما أكسبها ثقة وحبًّا لنفسها، فكانا يمدحانها ويشجعانها في جميع إنجازاتها؛ فبذلك أدركت أن قيمة الإنسان وتقديره من إنجازاته، وليست من شكله.

ومنَ الأخطاء الشائعة في التربية هي التركيز على الأخطاء، والتعليق عليها دائمًا، وتجاهل التصرفات الجيدة، واعتبارها من الأفعال المُسلَّم بها، فتجد الطفل مع الوقت على عكس المتوقع يزيد في أخطائه، ويُقلِّل من تصرفاته الجيدة.

فإذا أردت أن تزيد من شيء ما، يجب أن تُركِّز عليه، وإذا أردت أن تُقلِّل من شيء ما، تجنَّب الحديث عنه، فعندما تجد أطفالك يتشاجرون مثلًا، فتعاقبهم وعندما تجدهم يلعبون معًا فلا تتكلم ولا تنتبه، فستجد أن المُشاجرات زادت أكثر.

فحاول أن تُشجِّع طفلك طوال الوقت أكثر بكثير من نقدك له.

– البحث عن نقاط القوة:

في القصة بَحَثَ الوَالِدان كثيرًا عن مجال، لكي تتميز فيه سهى، وعندما فشلت في عِدَّة مجالات وشعرت بالإحباط، لم ييأسا هما، ولكن كانا واثقَيْنِ فيها وأن لديها مهارة ستظهر في وقت ما، وأصرا على ذلك حتى نجحا.

فلا تيأس أبدًا؛ لأن كل إنسان له قدراته المختلفة عن الآخر، وينجح الإنسان عندما يكتشف قدراته ونقاط قوته.

فجرِّب مع طفلك في كل النواحي حتى تكتشف نقاط قوته، ولا تيأس حتى إن لم تجدها، ولا تُذَكِّره دائمًا بنقاط ضعفه.

أجِب بصراحة

- ابنتك ذو شعر مجعد، ماذا تفعلين إذا جاءت يومًا وقالت «أنا شعري وحش» هل ستنكرين وتقولين لها «لا إنتي شعرك جميل، ناعم أهو وأجمل شعر»؟

.....

- متي آخر مرة استخدمتِ جملة فيها تهديد بمقدار حبك لطفلك مثل «خلَّص طبقك عشان أحبك» أو «مين حبيب ماما اللي هيخلص الواجب بتاعه بسرعة»؟

.....

- ابنتك نظَّفَت حجرتها دون طلب منك، هل ستشجعينها وتُثنين عليها؟

أم فقط عندما تطلبين منها تنظيف الحجرة ولم تفعل توبِّخينها؟

.....

- هل تعلم ما هي المهارات التي يتميز بها أولادك؟ لو كانت الإجابة لا، هل تبحث وتجرِّب معهم مهارات وأنشطة جديدة حتى تكتشف ميولهم؟

.....

الكمال

◄ «مش هقدر، أنا أجبن بكتير من إني أجرب!».

هذه الكلمات كانت ردي على زميلي في العمل، حينما عرض عليَّ فكرة مشروع صغير؛ لنبدأه معًا حتى نُحسِّن دخلنا، فقد توسَّم فيَّ النجاح، وشعر أننا سننجح في هذا المشروع معًا..

لكنني في الحقيقة لا أستطيع أن أخوض مثل هذه التجربة، فأنا تقليدي جدًّا، أعمل في مصلحة حكومية بمرتب، ومتوقِّع معاشًا في نهاية الخدمة، نعم قليلون لكن مضمونون، لكن ليس عندي الشجاعة أو الاستعداد للمغامرة وبدء تجربة جديدة....

حتى في الزواج، فإلى الآن لم أستطع أن أتزوج، فأنا أبحث عن امرأة بلا عيوب على الإطلاق، أنا أعلم أنه لا يوجد، وحتى إن وُجِدَتْ فهي لن ترضى بي، الإنسان الممتلئ بالعيوب؛ فلذلك أنا في مكاني لن أتقدم...

كل هذا بسبب حياتي الأولى منذ طفولتي...

والدايّ كانا يحبانني حبًّا جنونيًّا، لدرجة أنهما لا يستطيعان رؤيتي وأنا أُخْطِئ منذ كنتُ طفلًا رضيعًا.

أتذكر في طفولتي أنني كنت إذا شرعتُ في اللعب بالمكعبات، كانت والدتي تلاحقني حتى لا أضع المكعب في المكان الخاطئ، أو أضع المكعب الأحمر مكان الأزرق.

وحينما كنت أُلوِّن الرسم، كان والِدِي يمسك بيدي حتى لا أخرج باللون خارج الخط ولو بمللي واحد، فيجب أن ألوِّن وألعب (زي ما الكتاب ما بيقول).

حتى في ارتداء الملابس، كانت والِدَتي تُجهِّزني دائمًا للخروج لأنِّي لا أستطيع أن ألبس بمفردي، فبالتأكيد سأُخطِئ.

«وُلِدتُ لأرتكب الأخطاء، وليس لأتظاهر بالكمال».
(دريك).

لا أتذكر متى بدأتُ الأكل بمفردي، لكنِّي أعلم أنه كان في سن متأخرة جدًّا؛ لأنني إذا حاولت مجرد المحاولة للأكل بمفردي، وسقطتْ بعض حبات الأرز فأتلقَّى الصراخ المبالغ فيه من والدتي، ووصلت في يوم إلى الضرب عندما انسكب مني نصف كوب اللبن على الأرض، فقررت بعدها ألّا ألمس الطعام أو الشراب بمفردي، وأظن أن والدتي قررت ذلك كذلك.

كان غير مسموح لي أن أرفع صوتي، أن أقول لا، أن آخذ شيئًا من أحد، أن أقول رأيًا مخالفًا، أن أخطئ عمومًا ولو لمرة واحدة، كنت أتلقَّى تعنيفًا شديدًا ومحاضرات في الأدب غير مناسبة لسني، أو صراخ وضرب حتى أُعدِّل من سلوكي...

حينما كنتُ في المدرسة، كان مستواي الدراسي مرتفعًا بفضل والديَّ؛ اللذين كانا يذاكران لي من قبل أن أدخل المدرسة، كان هذا مُمِلًّا حقًّا لكنني لا

أستطيع الاعتراض أو حتى النقاش، كانا يطمعان أن أكون مميزًا في الدراسة، ولكن يا ويلي إذا أخْطَأتُ في الواجب أو نقصتُ بضع درجات.

لا أتذكر أنِّي سمعتُ تشجيعًا أو مدحًا منهما في يوم، كل ما كنت أسمعه هو التعليق على الإخفاقات أو الزلَّات.

فإذا أخذتُ درجة الامتحان 9 من 10 كان والدِي سرعان ما يعلق:

- **نقصت الدرجة دي في إيه؟؟** «واللي أخدوا الدرجة النهائية أحسن منك في إيه؟»

حاولت كثيرًا أن أُرْضِيهم، لكن في كل مرة أشعر أنني قد اقتربت من الوصول إلى توقعاتهم، أجد توقعاتهم قد زادت أكثر.

عندما أنهيت المستوى الثالث في السباحة، وكنتُ سعيدًا بهذا النجاح، ومتوقعًا مدحهم ومكافأتهم لي، وجدت أبي يقول:

- **إيه يعني تمرين السباحة؟** الكل بيعرف يعوم!! يعني كنت خدت ميدالية يعني!! لازم تتعلم رياضة تانية كمان.

كنت في بعض الأحيان أتشجَّع، وأحاول إثبات قدراتي، وفي أحيان كثيرة كان يصيبني الإحباط والخمول، وأقول لنفسي:

- **ما أنا كده كده مش عاجب، أوجع دماغي ليه؟؟**

لكن في كل الأحوال كنتُ أصاب بالضغط النفسي، وأشعر دائمًا بالذنب؛ لأنني لم ولن أستطيع تحقيق توقعاتهم، وزاد الموضوع أكثر؛ فأصبحتُ أشعر

بالذنب تجاه أيّ خطأ يحدث حولي، حتى ولو لم أكن السبب فيه، فإذا حدث شجار بين والديَّ فأنا السبب، إذا عاقب المدرس جميع الفصل فأنا السبب، إذا حدثت مشكلات في البيت فأنا السبب، كنت طوال الوقت ألوم نفسي.

كبرتُ، وتربَّى عندي وسواس قهري، أحاول أن أنجح في كل شيء، وأن أرْضي كل من حولي، لكن مع الوقت أيقنت أنِّي لن أستطيع القيام بهذا؛ لأنه من المستحيلات، فقررت الابتعاد عن القدوم لأيَّة خطوة جديدة في حياتي، حتى لا أتعرَّض للفشل...

وفي النهاية أنا لست راضيًا عن حياتي بكل تفاصيلها...

التعليق:

من الواضح في القصة أن سنوات الطفولة، ومعاملة الوالدين قد أثَّرت تأثيرًا كبيرًا في شخصية البطل، وهذه الآثار أصبح من الصعب إزالتها بعد الكِبَر، أو بمعنى أصح تحتاج إلى مجهود كبير وإرادة لمحو أثرها...

فهيا نتعرف على الأخطاء التي ارتكبها الأبوان منذ نشأة طفلهما.

- الكمال:

كان الوالدان يُعَانيَان من ظاهرة مشهورة عند كثير من الناس، وهي تُسمَّى: بالسعي إلى الكمال أو Perfectionism ويتصف أصحاب هذه الصفة بأنهم يبحثون دائمًا عن الأفضل ولا يكتفون أبدًا، فإذا وصلوا إلى الأفضل بحثوا عن الأفضل منه.

فلذلك كانا لا يقبلان أي خطأ ولو بسيطًا من طفلهم، فكانا لا يقبلان بأبسط الأخطاء؛ مثل: اللعب غير المنظَّم، أو التلوين غير الدقيق، ولا يقبلان بالأخطاء الكبيرة؛ مثل: الأخطاء الأخلاقية، فكانا يتعاملان مع الأخطاء بحدّة، وعدم مرونة؛ لأنهم ليس عندهم من الصبر التعامل بحكمة وهدوء، وانتظار النتيجة مع الوقت؛ فهم يريدون أن يروا الصواب بأقصى سرعة.

ليس فقط عدم تقبُّل الأخطاء، بل أيضًا كانا لا يقبلان أن يرى أحدًا أعلى من طفلهما، فكان إذا أخذ 9 من 10 في الامتحان يركزون على الدرجة الناقصة، وينسون التسعة الآخرين، وإذا أنهى تدريب السباحة طمحوا في ممارسة رياضة أخرى، وهكذا حتى يَئِسَ الطفل من إرضائهم، وعلم أنه لم ولن يرقى إلى مستوى طموحهم.

- عدم التشجيع:

في القصة، الابن قد افتقد تشجيعهما، فكان كلما قام بإنجاز وفرح به كان لا يجد التشجيع المتوقَّع، بل كان يتلقَّى النقد على غير المتوقع، فكانا بدلًا من أن يشجِّعاه على ما فَعَلْ ويمدحانه، كانا يبحثان عن الإخفاقات والنقص في هذا الإنجاز ويركزان عليها، مما جعل الولد يشك في قدراته، وذلك قد أدى إلى ضعف ثقته بنفسه.

ومع الوقت فَقَدَ شغفه في الإنجاز والنجاح وقرر ألّا يُقْدِم على أيّة تجربة جديدة؛ حتى لا يضع نفسه في موضع الفشل مرة أخرى.

فيجب التركيز على المميزات والنجاحات ومدحها، أكثر من التركيز على الأخطاء والعقاب عليها.

ليس معنى ذلك أنك يجب عليك مدح الطفل على ما ليس فيه، أو مدح مبالغ فيه؛ لأن الطفل وقتها سيعلم أنك تُجامله، فلن يهتم بعدها بمدحك، أو ربما يشعر الطفل أنه هكذا جيّد، ولا يريد التقدم أكثر.

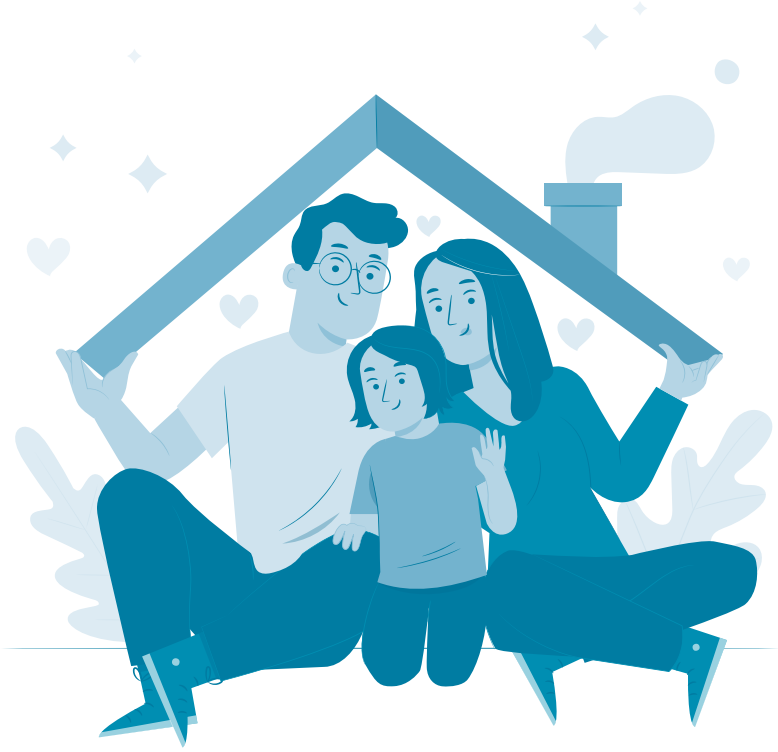

أجب بصراحة

- هل تتقبَّل بعض الأخطاء البسيطة لطفلك الصغير مثل عدم الكتابة على السطر، وخروج الألوان خارج الحدود، وعدم القصّ جيّدًا؟

.....

- هل تتقبَّل بعض الأخطاء البسيطة لطفلك الأكبر، مثل: أخطاء في الواجب المدرسي، وقوع بعض من الطعام خارج الطبق في أثناء الأكل، الرسم غير الدقيق؟

.....

- هل دائمًا تضغط على ابنك وتريده أن يكون الأول على الفصل، الأول على المدرسة، صاحب البطولة في اللعبة الرياضية؟

.....

- طفلك أخذ درجه 8/10 في الاختبار، هل ستسأله أولًا عن الدرجتين أين ذهبتا؟ أم تُشجِّعه أولًا على مجهوده؟

.....

- هل تلاحظ أن طفلك يتجنَّب القدوم على أي عمل جديد خوفًا من الفشل؟

.....

«بيسموني في الشغل حلال العُقد».

عندما يواجه فريق العمل أيَّة مشكلة ليس لها حل، سرعان ما يلجؤون إليَّ؛ فأنا كما يقولون «مبيقفش في إيدي حاجة، ومعنديش مستحيل».

سأحكي لكم كيف وصلت إلى هذا اللقب.

القصة بدأت منذ زمن طويل، عندما كسرت حاجز السنتين من عمري، كان يُطلَق عليَّ ألقاب عديدة، تارة الولد العنيد، وتارة الشقي، وأيضًا الزنَّان...

أمسك كل شيء وأعبث به، حتى إن والدتي تحكي لي أنِّي في مرة من المرات وجدتني في خزانة الدواء، وكل الأقراص مبعثرة على الأرض، فلا تعلم أي دواء من أيَّة علبة، وكم قرصًا قد بلعتُهُ! مع العلم أن كل الأدوية كانت مُحكَمة الغلق وذات غطاء لا يُسمَح للأطفال بفتحه، فإلى الآن لا يعلمون كيف فعلت هذا..

وفي مرة أخرى اختفيت عن أعين والديَّ، وأخذا يبحثان عني في كل مكان في الشقة، وكادا أن يصابا بالانهيار، فوجدني أبي في النهاية فوق الدولاب أستمتع بأكل الحلويات التي أخفتها مني والدتي...

وفي كل مرة من هذه المصائب كان يُجَنُّ جنونهم مني، ومع ذلك كنت

أبكي وأصرخ اعتراضًا مني على عدم سماحهم لي بإكمال جرائمي، ومنعي بالقوة.

كنت أسبِّب لهم المشكلات في زيارات الأقارب والأصدقاء، فكانت لا تخلو أيَّة زيارة من أحداث شائقة بالنسبة إليَّ، وكارثية بالنسبة إليهم، فأراهم يعتذرون كثيرًا بسببي، ويتلقَّوْن كلامًا سلبيًّا عني كثيرًا.

«خدي بالك ابنك ده حِرَكِي، وهيتعبك في المذاكرة أما يكبر».

«إنتي مدلعاه كده ليه؟».

«ابنك ده هيعملك مصيبة في يوم».

«لازم تعلميه الأدب، أنا خايفة عليكي».

«ما احنا كلنا اتربينا بالضرب».

وهكذا يتلقون كلامًا كثيرًا من هذه النوعية، مما كان بالتأكيد يؤثر عليهما، فيشحنهما ضدي، فيضطران إلى تفريغ هذه الشحنة في وجهي تارة بالصياح، وتارة أخرى بالضرب...

لكن على عكس المتوقع، كانت جرائمي ومشكلاتي تزداد أكثر بعد هذه المعاملات العنيفة، فكان كل تفكيري ينصب إلى: كيف سأقوم بفعل هذه المصائب دون أن أنكشف؟ فالحقيقة التي لا يعلمونها هي: أن البحث عن المشكلات في دمي، لا أستطيع الاستغناء عنه...

لاحظَتْ والدتي أن بُكَائي زاد، وأصبحتُ عصبيًّا أكثر، بل كانا عندما

يطلبان مني طلبًا ما، أول شيء يخطر ببالي هو الرفض؛ لأن عقلي الباطن ببساطة يريد أن أحمي نفسي، فأكون أنا المهاجم وليس الضحية، وهكذا أشعر بالأمان أكثر.

فأصبحتُ لا أُنفِّذ أيَّ طلب إلا إذا كان موافقًا لهواي، وفي الوقت الذي أحدِّده أنا...

فكان الحوار بيني وبين والدَيَّ كالقِطّ والفأر، فعندما يقولان شرق أقول غرب...

مثلًا وقت النوم هو وقت المعركة الكبرى كل يوم:

- يلا عشان تنام.
- لا أنا لسه ملعبتش.
- لا إنت لعبت كتير، دلوقتي وقت النوم.
- لاااااا (وأجري لأكمل لعبي).
- إسمع الكلام أحسن لك.
- .....
- لو مجتش دلوقتي هتضّرب.

أجري من مكان لآخر، وأستفزها فتجري ورائي لتلحق بي.....

وهذه المعركة تتكرر كثيرًا طوال اليوم، وقت النوم، والأكل، واللبس، والخروج، وحتى وقت اللعب.

- تعالى إلعب بالمكعبات.

- لا مش عايز ألعبها it's boring

- أمال نزلتها على الأرض ليه؟ مش إنت نزلتها وقلتلي تعالي إلعبي معايا؟

- .....

- طيب لو مش عايز تلعبها يبقى لها وعينها في مكانها.

فأجري منها، وأشغل نفسي بشيء آخر.

استمرت علاقة القط والفأر مدة من حياتي وأنا صغير.

كنا ندور في حلقة مفرغة، يطلبان مني، فأرفض طلبهما، فيستخدمان العنف، فأعند أكثر، فيزيدان العنف أكثر، وهكذا....

في سن الخمس سنوات حدث تغيُّر جذري في حياتي؛ بسبب تغيُّر معاملة والديَّ لي 180 درجة.

لا أعلم ماذا حدث، ربما قرآ كتابًا ما في التربية أو سمعا درسًا، ربما تكلما مع أحدٍ ما وسمعا نصيحته، أو ربما حَلُما بشيء... ليس هذا المهم، المهم أن تغييرهما المفاجئ، وخصوصًا والدتي كانت سببًا في تغير سلوكي.

في البداية لم أكن معتادًا على المعاملة الجديدة، فظللتُ أقاومها، وأعتبرها مريبة، فعقلي الباطن كان رافضًا للخضوع لرغباتهم...

لكن رد فعلها الغريب على رفضي، هو ما جعل عقلي الباطن يُعيد النظر مرة أخرى في الاستجابة لها.

وبدأ الحديث بيننا يتغيَّر كالآتي:

– يلا كمِّل أكلك.

– لا مش عايز.

– شبعت؟

– آه، مش هاكل.

– طيب يا حبيبي مش لازم تاكل دلوقتي لو شبعان.

وتأخذ الأطباق في هدوء تضعها في المطبخ.

عادةً في هذا الموقف كانت تنشب حريق بيننا، فوالدتي تبدأ بإعطائي الدروس حول نعمة الأكل، وواجبنا في الحفاظ عليها، وأن كثيرًا غيرنا يحتاجون إلى هذا الطعام ولا يجدونه، فعندما تسترسل في الكلام وأشعر بالملل فأقوم وأجري، فتُجَنَّ جنونها وتصرخ فيَّ، أو تأتي ورائي لتُلقِّنَني الدرس، فأبدي عدم الاهتمام مرة أخرى، فتصيح فيَّ أكثر، وهكذا حتى تشتعل الحريق أكثر...

مِمَّا تغيَّر أيضًا هو أنني بدأت أشعر أنها تسمعني، فهي ليست فقط تسمع ما أقول، لكن أيضًا تنصت جيدًا، وتشعر بما أقول، وفي أحيانٍ كثيرة كانت تتعاطف مع كلامي، حتى لو كان رفضًا لطلبها مني.

فمثلًا تغير سيناريو ترتيب الألعاب كثيرًا:

– شيل اللعب بتاعتك حطها في الصندوق.

– تعبان.

– شكلك تعبان علشان جريت النهارده كتير، معلش، أنا ممكن أساعدك النهارده علشان عارفة إنك مش قادر، ناولني الألعاب وأنا هحطها في الصندوق.

كانت النتيجة أنني أضطر إلى طاعتها، فلا أستطيع الرفض بعد هذا الحوار.

كبرت ودخلت المدرسة، ومعاملة والديَّ تتطور معي، أنا أيضًا معاملتي معهما اختلفت، والبيت أصبح هادئًا أكثر.

والدتي كانت تتعرَّض لبعض الانتقادات بخصوص أسلوبها في التعامل معي ومع أفعالي، لكنها على عكس السابق؛ كانت تعطي نفسها فرصة لتستريح وتفكر في مدى صحة هذه الانتقادات قبل أن تتعرَّض لي، أو تُفرِّغ شحنتها في وجهي.

مرت الأيام، وتطورت العَلاقة بيني وبين والديَّ، بعد أن كانا يتكلفان الطريقة الجديدة في الاستماع إليَّ والتعاطف معي، اعتادا عليها، وأصبحت هي الطريقة الرسمية في المعاملات بيننا، لِمَ لا؟ وقد رَأيَا الثمرة بأعينهما، فبعد أن كنت لا أسمع ولا أنتبه إلى أحد يتكلم معي، أصبحت أبادلهما نفس الاستماع والاهتمام والتعاطف.

في أحيان كثيرة كانت تضع والدتي نفسها في مكاني أو كما يقولون:

she put herself in my shoe.

فكانت تفكر في شعوري تجاه الموقف قبل أن تصدر ردة فعلها.

فمثلًا في يوم، كانت خالتي وأولادها في زيارة لنا في البيت، أتذكَّر كنت حينها في الصف الخامس، فجاء طفلها الرضيع الذي بدأ يحبو، واقتحم حجرتي في غيابي، وبدأ في تقطيع بعض أوراقي المدرسية... دخلت الحجرة ورأيت هذا المنظر، فسرعان ما أبعدته عن أوراقي بعنف، فصرخ الرضيع ووقع على الأرض، جرت والدتي وخالتي تجاهه، فكانت نظراتهما ممتلئة بالاتهام، فأخذتني والدتي جانبًا، وسألتني:

- إنت زقيت البيبي على الأرض؟

- هو اللي جه ناحية ورقي وقطعه، هو مين دخله هنا أصلًا؟

- أنا عارفة إنك زعلت علشان ورقك وعندك حق طبعًا، أنا لو مكانك كنت هتضايق برده ومكنتش هسكت، بس كنت ممكن بدل ما أزقه، أشيله وأطلعه بره الأوضة، مكانش هيحصل كده.

شعرت حينها بهدوء، فهناك من يشعر بي ويفهم ما يدور داخلي، بل يضع نفسه مكاني ويتخيل رد الفعل المناسب، وقدمت حينها الاعتذار المناسب.

مرت السنوات وكبرت أكثر، وارتبطت بوالديَّ كثيرًا في سن المراهقة على عكس الكثير من أصدقائي، الذين فقدوا الصلة بآبائهم في هذا السن، فكانا يتناقشان معي في جميع الأمور، ويسألانني عن رأيي ويهتمان به، وأنا أيضًا أبادلهما نفس المعاملة، فكنت لا أود أن أغضبهما...

نعم كان لي رأيي الخاص، وإرادتي القوية، والإصرار على تنفيذ رأيي كما يُسمُّونني «دماغي ناشفة»، لكن كان هناك حدٌّ من التفاهم؛ ما يجعل هناك مساحة من النقاش ومحاولات بإقناعها بوجهة نظري، فكنت أنجح أحيانًا وأخفِق أحيانًا، لكن في الحالتين كان هناك حوار متبادل، وأنا سعيد به وراضٍ عنه...

فمثلًا عندما أحاول إثبات وجهة نظري وتنفيذ رأيي؛ لأن طبعي أنني لا أستسلم بسهولة، فكانت والدتي لا تفرض رأيها عليَّ، وفي نفس الوقت لا تستسلم لرأيي؛ بل كانت تُقِيم معي بعض المفاوضات، حتى نصل إلى حل وسط يُرضي جميع الأطراف.

وهكذا نشأتُ وأنا أشعر أن شخصيتي مميزة عن قُرَنَائي، كانت لي وجهة نظري المختلفة في كل ما يحدث حولي.

> «ثابر بعناد، وستجد أن حدود عنادك تذهب إلى ما هو أبعد من عناد حدودك».
> (روبرت بريولت).

كنت لا أسمح لنفسي أن أتبع سياسة القطيع، وأُنفِّذ كل ما يقوم به الجميع، فليس كل ما يفعلونه أفعله دون تفكير، حتى لو كنت الوحيد الذي سينشق عنهم.

وأكثر شيء أظن أنِّي مميز فيه، هو إصراري على حل الألغاز والمشكلات المُعقَّدة، فكلمة مستحيل لا توجد في قاموسي.

فكما كنت عنيدًا مع أهلي في الصِّغَر، أصبحت عنيدًا مع الصعوبات والمشكلات في الكِبَر، ولهذا لقَّبُوني بحلَّالِ العُقد.

التعليق:

يتميز بطل القصة بصفة مهمة، وهي قوة الإرادة.

في الصغر كان أهله يترجمون إصراره وقوة إرادته على أنه طفل عنيد، لا يستطيعون التحكُّم فيه، وكانوا يوَجِّهون الانتقادات ضده، مما يجعلهم في محاولة دائمة لتقويمه، أولًا بالهدوء، ثم يلجؤون إلى الشدة والعنف، ولكن على عكس المتوقع يجدون مقاومة شديدة منه، بل بالعكس يزيد سلوكه الخاطئ أكثر؛ لأن الطفل وخصوصًا صاحب الإرادة عندما يشعر بالهجوم أو عدم الراحة في المعاملة معه، يلجأ إلى الاعتراض والمواجهة؛ حتى يحمي نفسه ويشعر بالأمان، ومن ثمَّ يلجأ الوالدان إلى رد فعل عنيف، وهكذا يدورون في حلقة مُفرَغة.

بعدما بدأ والِدَاهُ في إدراك أن صفة العند هذه من الممكن أن تُتَرْجَم بطريقة أخرى، وهي قوة الإرادة، حينها قررا أن تتغير المعاملة معه، وبالفعل رَأَيا ثمرتها.

اتّبَعَا بعض الخطوات لينفذا قرارهما في التغيير:

– تبنيا طريقة جديدة في المعاملة.

من الأشياء المهمة التي تتسبَّب في مشكلات كبيرة في التربية هي إصرار الوالدين، أو واحد منهما على نفس طريقته في المعاملة، وتربية طفله مهما أثبتت فشلها، فيحاول أكثر وأكثر بنفس الطريقة ولا يجد نتيجة مُرضية.

فالحل هنا هو البحث عن طريقة أخرى للتعامل مع الطفل، وتجربتها للتأكُّد من نجاحها، وإن لم تنجح بعد مُدَّة، فَعَليهِ تغييرها حتى يجد الطريقة المناسبة.

تخيل أنك أمام باب مغلق ومعك عدة مفاتيح، فجرَّبت أول مفتاح ولا تستطيع فتح الباب، فهل يُعقَل أن تستمر في محاولة فتح الباب بنفس المفتاح لعدة ساعات؟؟

– السماع جيّدًا.

عندما تسمع لطفلك إلى النهاية، ولا تعطي أحكامًا على ما يقول أو تقاطعه، فأنت تعطي له الفرصة للتعبير عما يدور داخله، وتعطي لنفسك فرصة للتفكير فيما يقول، وهذا الأسلوب يُقوِّي العَلاقة بين الطفل ووَالِدَيه، ويُعلِّمه الإنصات جيّدًا لما يُقال، فأنت كما تريده أن يسمعك اسمعه أولًا.

والسماع هنا ليس معناه أن يتكلم طفلك وأنت مشغول بالهاتف أو التليفزيون أو غيره، وفقط تُوهمه أنك تسمعه، بل السماع هو ترك كل شيء معك والانتباه إليه جيّدًا بكل حواسك.

– التعاطف مع الطفل.

عندما تُظهر تعاطفك مع الطفل، حتى لو كان خلاف ما تريد، فهذا يُقلِّل من حدة الموقف، فيشعر الطفل أن هناك من يفهمه ويشعر به، فيهدأ قليلًا ويبدأ السماع لك؛ على العكس من عدم التعاطف، والإصرار على رأيك،

وتجاهل مشاعره في هذا الموقف، فيشعر الطفل أنه غير مُرحَّب برأيه، وليس له حرية التعبير عن رأيه، فيعارض أكثر ويُظهِر اعتراضه أكثر.

وليس معنى التعاطف أن تُنفِّذ رغبة الطفل مهما كانت، بل التعاطف يعني أنك تُظْهِر له الاهتمام مع الحزم في تنفيذ التصرف الصحيح، فمثلًا طفلك لا يريد أن يعود إلى المنزل معك لأنه يلعب مع أصدقائه، فبدلًا من تهديده بتركه والذهاب دونه، أو الصياح فيه، فمن الممكن أن تقول: «أنا عارفه إنك مش عايز تروَّح علشان إنبسَطت النهارده وإنت بتلعب مع أصحابك، بس احنا لازم نروَّح دلوقتي».

– وضع نفسك مكان الطفل.

بدلًا من أن تعطي أحكامًا من ناحيتك وأنت تقف مكانك، فكر أولًا ماذا ستفعل لو كنت مكانه؟ فَكِّر ما هو شعوره الآن؟ وكيف سيتقبَّل ردة فعلك الآتي؟ عندما تسأل نفسك هذه الأسئلة تستطيع حينها التصرُّف بحكمة وفي هدوء، وإيجاد حل بديل إذا لزم الأمر.

– المفاوضات.

بدلًا من الإصرار على رأيك، وإصرار الطفل على رأيه ويبدأ الصراع على أيهما الأقوى الذي سيُنفِّذ رأيه، من الممكن عمل بعض المفاوضات، والبحث عن حل وسط يُرْضي جميع الأطراف.

تذكر أنك بوصفك أبًا أو أمًّا لست مطالبًا بعمل مفاوضات دائمًا أو تنفيذ

رغبته، لكنك لك الحق في تنفيذ ما فيه المصلحة له وللأسرة، ولكن يجب أن يكون هناك على الأقل حد أدنى من النقاش، يستمع فيه الطفل إلى رأيك في المسألة، وتستمع لرأيه حتى تُصدر حكمًا عادلًا، وأيضًا ليفهم الطفل وجهة نظرك فلا يشعر بالظلم.

– عدم السماح لتدخُّل الآخرين في تربيتك لطفلك.

في بداية القصة كانت تسمع الأم انتقادات الآخرين لطفلها ولسلوكه، مما يجعلها تتأثر كثيرًا وتبالغ في ردة فعلها تجاه تصرفات طفلها.

لكنها بعد أن غيَّرت طريقتها، ورأت ثمرتها، بدأت ألّا تكترث بتعليقات الآخرين، مثلما كان يحدث سابقًا.

فيجب عليكِ بصفتك أمًّا ألّا تهتمي بكل التعليقات، وتحاولي تنفيذها؛ لأن كل طفل مختلف عن الآخر، وما ينجح معك ليس بالضرورة أن ينجح مع الآخر. فيجب أن تتقبلي النصائح، وتأخذي فقط ما يناسبك منها، وتتركي الباقي.

أجب بصراحة

- هل تصف طفلك بالطفل العنيد؟

.....

- خرجتِ يومًا مع أصدقائك، سمعتِ انتقادات كثيرة لطريقة تربية طفلك، كيف تتعاملين مع هذه الانتقادات؟ هل تُفرِّغين ضغطك من هذا النقد على طفلك وتقومين بالصياح فيه أو ضربه؟ أم تقومين بأخذ بعض النصائح المفيدة، وتحاولين تنفيذها وتتركين الباقي؟

.....

- سمعتِ أو قرأتِ طريقة جديدة للتربية، أو نصَحَكِ أحدهم بها، هل تكابرين وتقولين لا هذا الكلام ليس لي؟

.....

- جاء طفلك ليحكي لكَ شيئًا، هل تغلق الموبايل وتنزل لمستواه وتنظر إليه في عينيه وهو يتحدث وتنصت إليه؟

.....

- في الصباح، الطفل يقول: «أنا تعبان مش عايز أروح المدرسة». هل تقولين: «أنا عارفة إنك تعبان ومقدرتش تنام كتير معلش» أم «هتروح غصب عنك بطل استهبال»؟

.....

- الطفل لديه واجب مدرسي كبير ولا يريد حله، هل وضعتِ نفسك مكانه يومًا، وقلتِ لنفسك: «عنده حق فعلًا ده واجب كبير عليه، وهو تعبان طول اليوم في المدرسة وسنه صغير، أنا لو مكانه أكيد هبقى تعبانة برده»؟

.....

- وضعتي قاعدة جديدة في البيت وهي: السماح باللعب على ال playstation لوقت محدد في الأسبوع، لكن طفلك معترض على قِصَر هذه المدة، هل ستتفاوضين للاتفاق على مدة مُرضيَة، أم تفرضين عليه قاعدتك؟

.....

القسوة وعدم التعاطف

أنا صلاح، مشكلتي كلها تتلخَّص في ثلاث كلمات: «محدش حاسس بيا».

أنا طالب في السنة النهائية في كلية الطب.

«بالمناسبة أنا مبحبش الطب، ومبحبش اسمي، وبكره إني ولد، هحكيلكوا إيه اللي وصَّلني لكده».

أظن أن قصتي مختلفة بعض الشيء، فإنها قد بدأت في وقت مبكر، مبكر جدًّا... قبل ولادتي أصلًا....

بدأت منذ عرف والِدِي أن جنس المولود الذي سيَرْزُقُه الله به هو ولد، ومن هنا بدأت المشكلة.

يعتقد أبي أن تربية الولد يجب أن تكون مميزة، يجب أن يتربى الولد على الشِدّة؛ حتى يكون رجلًا، أو كما يقول: «صلاح الدين التاني» ولذلك سمَّاني بهذا الاسم اعتقادًا منه أن كل إنسان له نصيب من اسمه.

منذ أول يوم بعد ولادتي بدأ وَالِدَاي يتعاملان معي من هذا المنطلق «لازم يبقى جامد».

فكنت إذا بكيت كما يبكي باقي الأطفال حديثي الولادة كان يقول أبي لأمي:

«سيبيه يعيط عشان يطلع راجل، متجريش كده عليه».

وفي بعض الأحيان كان يستطيع إقناعها بذلك عن طريق الجملة الشهيرة:

«متشيليهوش عشان ميتعودش على الشيل».

كانت أمي تستجيب له، لا أعلم إذا كانت مقتنعة بآرائه، أم فقط تستجيب حتى تتجنَّب المشكلات والدروس الطويلة التي كانت ستحدث، فتؤثر السلامة.

لا أعلم أيضًا هل أنا أيضًا استسلمت للأمر الواقع، وأيقنت أنه لا جدوى من البكاء للنداء عليهم؟ أم حاولت كثيرًا ولم أيأس؟

لعلك تخيَّلت أنني بعد أن أكبر وأستطيع المشي بمفردي فكل شيء سيُحَل، ويكون على ما يرام، لكن بالعكس، كلما كبرت زاد الموضوع تعقيدًا...

فالآن بعد أن كان الكلام موجَّهًا إلى والدتي، أصبح موجَّهًا لي.

فعندما كنت أبكي لأي سبب منطقي لبكاء الأطفال في سني فكنت أسمع هذه الكلمات:

«إنت مش بيبي عشان تعيط».

«قوم إنت ولد».

«خليك جامد إنت راجل».

«الولد مبيعيطش».

«مش عايز أسمع عياط».

إذا وقعت على الأرض، إذا حدثت لي أيَّة إصابة، إذا تعرَّضت للظلم، ليس من حقي التعبير عن حزني بالبكاء أو بغيره؛ لأنني ببساطة «راجل».

بدأت أقتنع بعض الشيء برأيهما، فكنت أحاول التظاهر بعدم الاهتمام إذا وقعْتُ في مشكلة، وإن لم أستطع ذلك وكان الموقف صعبًا بالنسبة إليَّ، فكنت أدخل حجرتي أو الحمام لكي أبكي حتى لا يراني أحد. لمَ لا؟ وأنا كنت قد وصلت إلى مرحلة أنه إذا رآني أحد من وَالِدَيَّ أبكي كانا يُهدداني بالضرب، أو يضرباننني فعلًا حتى أتوقف عن البكاء...

كبرت قليلًا وبدأ سقف توقعات والديَّ يعلو كثيرًا...

دخلت المدرسة، وبدأت تظهر خطوط حمراء جديدة أخرى بجانب البكاء، يجب أن أتجنَّبها لأني «راجل».

كان يجب ألّا أشتكي من زملائي في المدرسة؛ لأن هذا يدل على الضعف، والرجل يجب ألّا يكون ضعيفًا، فمن ثمَّ أيَّة مشكلة تحدث في المدرسة سرعان ما يلقيان باللوم عليَّ.

- أحمد ضربني.

– تلاقيك إنت اللي بدأت.

- آدم مش راضي يلعب معايا.

– عشان إنت بتغلِّس عليه في اللعب.

> عن أبي هريرة ﷺ، عن الأقرع بن حابس ﷺ أبصر النبي ﷺ يُقبّل الحسن، فقال: «إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحدًا منهم»، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم، لا يُرحم».

• الميس عاقبتني.

– تستاهل عشان مبتحلش الواجب وبتعمل شقاوة.

وهكذا.....

كرهت الشكوى لهم أو حتى الحديث معهم فيما يحدث في المدرسة.

لم أسمع منهم مرة كلمة «معلش» ظننتها كلمة سهلة ومجانية لا تُكلِّفهم شيئًا، لكن أتوقع أنها كانت كلمة ثقيلة عليهم جدًّا.

أتذكَّر يومًا كان عندي قلم عزيز عليَّ جدًّا، كانت جدتي قد أعطته لي هدية منذ سنوات، ضاع مني القلم في المدرسة، وكنت حزينًا عليه جدًّا، عندما ذكرت هذا لوالدتي، كل ما قالته لي هو:

«إيه يعني؟؟ ده حتة قلم، أجيبلك غيره؟».

أعلم أنه «حتة قلم» لكنه بالنسبة إليَّ ليس مجرد «حتة قلم» فهو يُمثِّل لي ذكريات قديمة، وشيئًا عزيزًا عليَّ، أنا لا أريد قلمًا غيره، وأعلم أيضًا أنني لن أجده مرة أخرى، كل ما كنت أريده هو أن أسمع كلمة واحدة «معلش» كلمة مواساة صغيرة وسهلة...

ولن أنسى أبدًا هذا الموقف الذي أدركت بعدها أنني يجب ألّا أضيّع وقتي ومجهودي، وأتوقع التغيير والتعاطف من والديَّ، الذي كثيرًا ما بحثتُ عنه طوال حياتي السابقة...

كنت في نهاية الإعدادية، وكانت عندي قطة لطيفة عاشت معي سنوات

طويلة، وكانت صديقتي الوحيدة في هذا البيت، فكنت أشكو لها مشكلاتي، وأجدها تسمع لي دون نقاش... مر الزمن ومرضت القطة وماتت...

كنت أظن أنه من الطبيعي أن أتأثر بموتها وأبكي وأحزن، فلم أستطع وقتها التحكُّم في مشاعري وأكتمها أو أخفيها، ولكن كان لِوَالِدِي رأي آخر، فكانت أقسى جملة سمعتها في حياتي وقتها «فيها إيه! دي قطة، نبقى نجيب غيرها».

كان هذا الرد بمنزلة نقطة تحوُّل كبيرة في حياتي، فقد كانوا السبب في قطع أي أمل لوجود أي حديث أو صلة بيني وبينهما...

كنا كما الغرباء في بيت واحد، لا أسألهما عن حالهما، ولا أحكي لهما عن حالي أو أوجاعي.

بدأت مرحلة الثانوية العامة، وما أدراك ما الثانوية العامة في بيت مثل هذا، كل اللوم يقع عليَّ، أيَّة مشكلة أنا السبب فيها.... فلك أن تتخيل وقت الثانوية العامة في البيت، ما شكله!!!

ولحسن حظي وسوء حظي في آن واحد أنني كنت بطبيعتي مجتهدًا، ربما لأنني لا أجد أمامي إلا الكتب لأصاحبها، أو ربما لأن خيار عدم الاجتهاد في المذاكرة لم يكن مطروحًا عندنا...

المهم أن هذا جيد؛ لأنه جنَّبني الكثير من المشكلات التي كانت ستحدث بالتأكيد إن لم أحصل على مجموع عالٍ...

وسيئ بالنسبة إليَّ أيضًا؛ لأنني حصلت على مجموع عالٍ يؤهلني لدخول كلية الطب وأنا لا أريدها، كنت أريد أن أدرس الإعلام، ولكن كيف أحصل على مجموع 99 % ولا أدخل الطب...

وأكيد في بيت مثل هذا لا أستطيع أن أقول أو أفعل ما أريد، بل ليس لي الحق أن أريد أصلًا...

من أنا كي أريد؟

فأنا بالنسبة إلى أبي وأمي روبوت صنعاه، وحصلا هما على الريموت ليبرمجاه ويتحكما فيه كما يشاءان، ومن المعروف أنه ليس من حق الروبوت أن يُعبِّر عن مشاعره أو إرادته.

التعليق:

اعتقد والِدا صلاح اعتقادات خاطئة عن التربية منذ أول يوم.

اعتقدا أن طفلهما هو ملك لهما (روبوت كما قال صلاح) يستطيعان التحكُّم فيه كما يشاءان، وليس له الحق في الاعتراض أو الاختيار، ليس له مشاعر.

وبناءً عليه لم يتعاملا معه بصفته بشرًا له مشاعر وأحاسيس، فلم يتعاطفا معه يومًا.

ما هو التعاطف Empathy؟

التعاطف: هو أداة سحرية لامتصاص غضب الطفل، تُستخدم هذه الأداة عندما يكون الطفل حزينًا، عصبيًّا، خائفًا... أو يشعر بأي شعور سلبي.

التعاطف يتم بوضع نفسك مكان الطفل، وتخيُّل مشاعره حينها، وماذا تفعل لو كنت مكانه put yourself in his shoes وبعدها ستستطيع التعامل معه جيّدًا.

ما هي أهمية التعاطف؟

- التعاطف يُقوّي الرابط بين الطفل ووالِدِه.
- يُشعِر الطفل أن هناك أحدًا يقف بجانبه، ويدعمه، ويفهم مشاعره.
- ينشأ الطفل وهو أيضًا يشعر بمن حوله، وليس طفلًا أنانيًّا.
- تزيد ثقته بنفسه.
- ينشأ متزنًا نفسيًّا.

هناك مفهوم خاطئ وهو: إذا تعاطفت مع طفلي هذا معناه أني أوافق على كل ما يقول، وهذا ليس صحيحًا... التعاطف معه معناه أنك مقدِّرٌ إحساسه، لكن ليس بالضرورة أن تكون موافقًا عليه، وأنه يجب تنفيذ ما يطلب.

مثلًا جاء الطفل يشتكي من مُعلِّمته...

فإذا قلتِ له: «أكيد إنت السبب» أو «عشان محلتش الواجب» أو «مينفعش تتكلم كده على الميس بتاعتك» يشعر الطفل أنه وحيد، ولا أحد يفهم ما يريد.

لكن إذا قلتِ له: «معلش شكلك متضايق النهارده، تعالى احكيلي» سيشعر الطفل أنك تُقدِّر مشاعره جيدًا ومستعد لسماعه.

مثلما قال صلاح تمامًا «أنا مش عايز قلم تاني، أنا عايز حد يقولي معلش».

أيضًا من الأخطاء التي وقع فيها الأبوان هي:

– الظن بأن تربية الولد تحتاج إلى شدة مبالغ فيها، حتى يصير رجلًا يُعتَمد عليه، فكانت نتيجة شدتهم هي أنهم خسروه، وأنشَؤوا رجلًا لديه مشكلات نفسية، غير مرتبط بوَالِدَيه.

– الظن بأن الولد لا يجب أن يبكي، فكل إنسان لديه مشاعر ولدًا كان أم بنتًا، وكلٌّ منهم له الحق في التعبير عن مشاعره بالطريقة المناسبة، وبكاء الرجل لا يقدح في رجولته.

فإذا منعت الطفل من التعبير عن مشاعره بالبكاء، فربما يعبر عنها بأي سلوك خاطئ آخر.

– إصدار الأحكام على الطفل، فعندما كان يشتكي من أي شيء في المدرسة، كانا يعتبرانه هو المتهم الأول.

– تخطيط مستقبل الأولاد على حسب رغباتنا، فكل إنسان له ميوله ورغباته. فليس من العدل تعويض أحلامك وطموحاتك، التي لم تستطع فعلها في إجبار أولادك على تحقيقها.

أجب بصراحة

- هل تعرَّضت لكلمة «سيبي البيبي متشيليهوش عشان ميتعودش على الشيل»؟ وكيف تعاملتِ معها؟

.....

- هل تسمح لابنك الولد بالبكاء؟ وكيف تتصرف حينها؟

.....

- طفلك رجع من المدرسة، ويشتكي من معاملة المعلمة له، هل ستقول: «أكيد إنت السبب» أو «أحسن عشان معملتش الواجب»؟

.....

- طفلك رسم لوحة، ومهتم ومحتفظ بها، وحينما كنتِ ترتبين الغرفة قطعتِ اللوحة، أو ألقيتِها في القمامة دون قصد، وجاء طفلك ليسأل عنها، ماذا ستفعلين؟ هل ستواسينه وتعتذرين له، أم تسفِّهين منها، وتعطينه درسًا في كيفية الحفاظ على غرفته نظيفة؟

.....

- هل تحكي لطفلك عن حالك، وتسأله عن حاله يوميًّا؟

.....

- هل ستسمح لأولادك باختيار المجال المُحبَّب لهم بأنفسهم لدراسته في الجامعة؟

.....

- هل تشعر أنك تتعامل مع طفلك كأنه إنسان آلي وأنت لديك جهاز التحكُّم عن بعد؟

.....

الأب المسافر

أنا آدم، أدرس حاليًّا في السنة الأخيرة في كلية الشعب؛ كلية التجارة.

«ادعو لي أخلص السنة دي؛ علشان أنا بقالي سبع سنين في الكلية دي، اللي كانوا أصغر مني بقوا بيدَرِّسُوا لي والموظفين في الكلية حفظوني».

أنا وحيد وَالِديَّ، أو بمعنى أصح والدتي؛ لأنني منذ أن وعيت على الدنيا وأنا لم أتمتع للحظة بحضن والدِي، فهو دائم السفر، حتى إنني بعد أن أتممت ثلاث سنوات، قرر الإقامة الدائمة في الخارج، وتركني أنا ووالدتي وحدنا.

كنتُ بالنسبة إلى والدتي كل شيء، فكانت دائمًا تريد أن تُعوِّضني عن عدم وجود أبي معي.

تركَتْ كل حياتها وطموحاتها وهواياتها وأحلامها من أجلي.

كانت دومًا معي، كانت لا تحتمل رؤيتي حزينًا لأي سبب، مهما كان يبدو السبب تافهًا، كانت تتدخَّل فورًا في كل مشكلاتي الصغيرة قبل الكبيرة، حتى إنني أتذكر في يوم أنها خسرت أعزّ أصدقائها بسببي، كان عمري حينها بين الثلاثة والأربعة أعوام، فقد كنت ألعب أنا وابن صديقتها في الحديقة، أخذ الولد دورًا أطول قليلًا على الأرجوحة، فبدأت أطلب منه النزول لكنه رفض بحجة أنه لم ينتهِ وقته بعد، فصرختُ في وجهه وشرعت في البكاء، كالعادة لم تتحمَّل أمي هذا المنظر، واتجهت إليَّ مسرعة ولم تتحدث إليَّ، لكنها بدأت تنفعل على الولد:

– قوم من على المرجيحة، إنت مش شايف آدم بيعيط؟

لم يرد الولد لأنه خاف من حديثها، ولم يتوقعه.

– إنت بقالك كتير قاعد، يلا انزل بدل ما أقول لمامتك.

خاف الولد ونزل وركبت أنا، وشعرت بالانتصار حينها، وجاءت والدته لتعرف ماذا يحدث، ولكنها فوجِئت بتوبيخ والدتي لابنها بسببي، ودخلا في جدال عنيف، لا أعلم ماذا حدث فيه، لكن كل ما أعرفه أنهما لم يتقابلا بعدها مرة ثانية.

كانت والدتي دائمًا تضع في حسابها وفي كل تصرفاتها عامل غياب الأب، وتأثيره في نفسيتي، فقبل أن تتصرَّف معي أو تقوم بأي ردة فعل تفكر في شعوري، وأني ليس لي سواها، فترجع في تصرفها وتتعاطف معي بلا حدود.

> «أحبب أولادك بقلبك وأدِّبْهم بيدك»

كانت لا تستطيع أن ترفض لي أي طلب مهما كان، فمثلًا إذا خرجنا إلى السوبر ماركت، فكانت تشتري لي كل ما أشير إليه...

على العكس من باقي الأطفال في سني، لم يكن عندي مشكلة مع أكل الحلويات، أشتري كل ما أريد وآكله وقت ما أريد، حتى إنني في أحيان كثيرة أزهد فيها وأرميها؛ لأنها متوفرة طوال الوقت.

في بعض الأحيان عندما أقابل بعض الأُسَر الأخرى، وأرى الأم تنهر طفلها أو تصرخ فيه أو توجِّهه أو حتى تقول له: «لا» كنت أندهش وأتساءل

لماذا تفعل هكذا؟؟ فأنا لم أتعرَّض لهذا من قبل، وماذا يستدعي أن تفعل الأم ذلك مع ابنها؟؟

لا أعلم لكنني كنت أشعر أنني مختلف عن الآخرين..

في بعض الأوقات أشعر أن هذا الاختلاف جيد، وهو لافت للنظر لباقي الأطفال فكلهم يتمنون أمًا مثل أمي، لا تلوم ولا توجِّه ولا تؤنِّب، كل شيء مباح.

لكن في أوقات أخرى كثيرة كنت أشعر بالخوف وعدم الاطمئنان؛ لأنِّي لا أرى حدودي، غالبًا ما يريد الإنسان -وخصوصًا في السن الصغيرة- أن يعرف الحدود المسموحة له، فيشعر أن حوله جدارًا عازلًا، لا يستطيع الخروج خارجه، فيشعر بالأمان داخله، وأنه ما دام هو بداخله لا يمسه مكروه فيلتزم به؛ لهذا كنت أحسد بعض الأصدقاء الذين تقول لهم والدتهم «لا» حتى لو كانوا يشعرون بالقهر...

كبرت ودخلت المدرسة، وما زالت والدتي لا تستطيع أن تُغضِبَني، أو ترفض لي طلبًا، كنت أحبها وأشعر بحبها الشديد لي.

بدأت تظهر المشكلات عندما تعرضْتُ لقيود المدرسة، لم أكن معتادًا على وضع القواعد لي، أو فرض القيود عليَّ...

لماذا يجب عليَّ أن أنام في وقت محدد وأستيقظ مبكرًا؟؟؟

كيف لا يمكنني أن آكل في أي وقت في المدرسة عندما أجوع؟؟؟

ما معنى أن أقف في طابور طويل، ولا أتجاوز دوري؟؟؟

هل من المفترض أن أجلس طوال الحصة في مكاني دون حركة، ودون كلام؟؟؟

فذلك كان صعبًا عليَّ، بل مستحيلًا أن ألتزم بالقواعد في المدرسة، ولذلك كانت تشتكي مني جميع المُدرِّسات، وكثيرًا ما كنت أقضي وقتًا طويلًا في مكتب الناظر.

حتى في المنزل، كنت لا أستطيع أن أجلس لحل الواجبات المدْرَسيّة لأني ببساطة لا أحب الواجبات؛ فكنت أتركها وأذهب لمشاهدة التلفاز، وكل مرة تأتي والدتي وتطلب مني أداء الواجب؛ فكنت أتحجَّج بأنني لا أستطيع، وأنّي مرهق اليوم... وكالعادة لا تحتمل والدتي أن تشعر بأني متعب، فلا تريد أن تُثقِل عليَّ؛ فما كانت تستطيع فعله في كثير من الأوقات هو أن تقوم بحل الواجب مكاني، حتى تُجنِّبني المضايقة من المُعلِّمات، وتمنع عني المشكلات.... وهذا بالطبع من الأسباب الكبيرة التي قلَّلت من مستواي الدراسي، وضيعت عليَّ فرصًا كثيرة الآن...

ليت المشكلات كلها كانت مشكلات دراسية، بالعكس كان هناك مشكلات أهم تتعلق بعلاقتي بوَالِدِي نفسه...

> الأم تحب برقة، والأب يحب بحكمة.

أتذكر عندما كنت صغيرًا، كنت أنتظر قدوم والدِي من السفر، فعندما كان يأتي من السفر كنتُ أفرح جدًّا، ليس لأنه أبي الذي اشتقت إليه كما تتوقعون، فأنا لم أعتد عليه وعلى وجود

أب لي منذ حضرت إلى الدنيا، ولكن لأنه كان يأتي لي بهدايا كثيرة، فكنت أنتظر هداياه دومًا.

لكن بعد توزيع الهدايا والإقامة معنا عدّة أيام، يبدأ في توجيه النصائح والإرشادات لي، فكنت أنفر منه، وأنتظر وأعد الأيام حتى يحين موعد سفره.

حتى أمي، أعلم جيدًا أنها كانت تنتظر قدومه كذلك، لكن بعد أن يأتي ويبدأ في النقد، تبدأ انتظار موعد ذهابه مرة أخرى.

سمعتهما ذات مرة في حوار:

– الولد ده إنت مدلعاه كده ليه؟ خليه يسترجل شوية...

– يسترجل إيه؟؟ ده لسه طفل ولازم ياخد حقه في الحنان.

– إنتي اللي لسه شايفاه طفل، بقى كبير أهو، ده حتى مش مستحمل أي كلمة أقولهاله كإني غريب.

– مهو مش متعود عليك، وبصراحة بقى إنت جاي إجازة قصيرة وماشي، فخليه يفرح فيهم ومفيش داعي تعكنن علينا.

– أعكنن عليكوا؟؟

– قصدي إننا مبسوطين، والولد بربيه بطريقة معينة، فمش معقول هتيجي الشوية اللي بتجيهم دول وتعلمني أربيه إزاي وتبوظ كل اللي بنيته، متخافش أنا عارفه أنا بعمل إيه...

– بتعملي إيه وبتبني إيه؟ بتبني عيل متدلع؟؟

– يووووه!! هو كل إجازة تيجي تشتكي منه ومني ومبقيناش عاجبينك؟ استحمل بقى الشوية اللي إنت قاعدهم دول...

كنت أشعر أنه ضيف ثقيل نتمنى مغادرته...

ومرَّ الزمن، وزادت الفجوة بيني ووالدِي كثيرًا، كان بالنسبة إليَّ هو البنك أو بطاقة الائتمان التي أتذكرها كلما احتجت إلى أن أشتري شيئًا، وأظن أنه أصبح كذلك بالنسبة إلى أمي.

وبالنسبة إلى حالي في الدراسة، فكنتُ متعسرًا، كانت المدرسة بالنسبة إليَّ كابوسًا مرعبًا بكثرة أوامره وضوابطه التي لا تنتهي.

كانت أمي تحمل معي عبء المذاكرة الثقيل، فهي تحل عني واجباتي، وتُلخِّص لي الدروس، لو كان الأمر بيدها لكانت أعدت وجبات ومشروبات من الكتب وأعطتها لي، لكن لم ينجح هذا...

كنت أنجح كل عام بأعجوبة، حتى وصلت إلى المرحلة الثانوية.

في المرحلة الثانوية تعرفت إلى أصدقاء جدد بحكم دخولي مدرسة جديدة...

تعلمت منهم الكثير...

تعلمت منهم كيف آخذ مصروفًا زائدًا عن حاجتي بحجة الدروس.

تعلمت منهم كيف أترك المدرسة لأستمتع ببعض الوقت مع أصدقائي، وأرجع في وقت المدرسة.

تعلمت منهم كيف أجذب البنات إليَّ.

وأخيرًا تذوقت معهم طعم السجائر.

أكثر ما كنت أجيده هو طريقة التعامل مع والدتي، وإقناعها بكل ما أريد فعله، أو حتى عدم إقناعها لا يهم، لكنني كنت أحفظها جيدًا، وأعرف نقاط ضعفها وكيف أضغط عليها.

أتذكر يومًا عندما اكتشفت أنني أتعاطى السجائر، واجهتني وبدأت في لومي:

- إنت بتشرب سجاير؟!

- لا ده واحد صاحبي اللي اداهالي.

- إزاى!! أنا شامة ريحتك كلها سجاير.

- ده عشان كنت قاعد جنبه.

- لا أنا متأكدة أنه إنت!

- يووووه! يعني إنتي مش مصدقاني؟ أنا عمري كذبت عليكِي؟ وبعدين إنتي عايزة تراقبيني؟ ولا هو عشان أنا معنديش أب قاعد معايا وبياخد باله مني فهتبقي مش واثقة فيا؟

- لا يا حبيبي أنا واثقة فيك طبعًا متقولش كده! مش احنا أصحاب وأي حاجة بتعملها بتحكيهالي؟

- أيوة طبعًا أصحاب وإنتي أحسن صاحبة ليا...

وهكذا أستطيع في كل حوار الضحك عليها بسهولة، على رغم أني كنت

متأكدًا حينها أنها متأكدة مليون بالمائة بأنني أكذب، ولكنها آثرت السكوت على جلب المشكلات، والخوف من الكلام ونقد أبي لها.

لم أكن أعتني بالدراسة ولا المذاكرة، كل ما كان يهمني هو كيف أخرج وألعب وأصادق البنات وأشرب الدخان...

دخلت كلية التجارة بأعجوبة، وبفضل أوراق إجابات أصدقائي، والبرشامات التي أعددتها قبل الامتحان، كانت والدتي مندهشة من ذلك كثيرًا؛ لدرجة أنها أقامت حفلة كبيرة، لم تكن تتوقع أن أنتهي من مرحلة الثانوية.

أظن أن أكثر ما كان يشغلها هو كلام والدي الذي سيلقِّنها درسًا عن التربية، وكيف أنها قد قصَّرت في تربيتي والاعتناء بي.

وبدأتْ مرحلة الكلية، وهأنذا في السنة الثانية للمرة الثالثة، وأتمنى أن أنتهي بسلام.

التعليق:

في هذه القصة ارتكبت الأم عديدًا من الأخطاء المُركّبة، وكل خطأ ارتكبته بدلًا من أن تصلحه، قامت بخطأ أكبر منه لتتفادى خطأها الأول.

وهذه بعض الأخطاء التي ارتكبتها:

- عدم قول لا:

كانت تشعر الأم تجاه آدم بالذنب دائمًا؛ لأنه الوحيد، ولأن والده ليس

مقيماً معهم، وهذا الشعور يقودها إلى الرغبة بالقيام بتعويضه عن طريق تدليله الزائد، وتنفيذ رغباته.

فنادرًا ما تقول لا أو ترفض طلبه مهما كان، أو تُوجِّهه حين يخطئ، وهذه الطريقة كانت تُرضي ضميرها.

لكنها لم تكن تعلم أن العكس من ذلك هو الصحيح، فقد أثبتت الدراسات أن الطفل يحتاج إلى سماع قول لا، ووضع حدود وقواعد له، وإن لم يجد ذلك غالبًا لن يشعر بالسعادة أو الاطمئنان.

وكما هو معروف أن التدليل الزائد يفسد الطفل ولا يصلحه، وينشئ طفلًا أنانيًا. وأول من يطولها أذاه هي الأم التي دلَّلته في البداية.

فيجب وضع حدود وقواعد للطفل لا يمكن تخطِّيها.

- تدخُّل الأم في كل التفاصيل وحل مشكلات الطفل بنفسها:

من فرط اهتمام الأم بآدم وتفرُّغها له؛ فكانت تهتم بأدق تفاصيل حياته، وتعيشها بنفسها، فالاهتمام بالطفل واجب على الأبوين، لكن الإفراط فيه ينشئ طفلًا غير متحمل للمسؤولية، ذا شخصية ضعيفة، ليس لديه القدرة على حل مشكلاته بنفسه.

فيجب على الأم عدم التدخُّل في كل صغيرة وكبيرة، فمثلًا في هذه القصة كان لا يجب على الأم التدخُّل في شجارات الأطفال، وترك الطفل يتعامل بنفسه مع قُرنائه، وأيضًا كان لا يجب تدخُّلها في حل واجباته المدرسية...

والأمثلة كثيرة حولنا مِمَّن تجدها تتدخَّل في التفاصيل الدقيقة مع ابنائها.

– عدم تقبُّل فكرة شعور الطفل بمشاعر سلبية:

طبيعي أن أكثر ما يسعد الأم هو رؤية أولادها سعداء، وأن رؤيتهم محبطين، أو شعورهم ببعض الحزن قد يُحْزِن الأم أكثر من أبنائها نفسهم.

لكن بما أننا لا نعيش في الجنة، فمن الطبيعي التعرُّض لأي منغِّصات أو مضايقات في حياتنا، ومن ثمَّ يجب تَقَبُّل فكرة أن يشعر ابني بمشاعر سلبية نتيجة ما تعرَّض له، وليس من واجبي منع تعرُّضه لأي مشكلات أو منغِّصات، بل بالعكس يجب تشجيعه على مواجهة هذه المشكلات، ومساعدته في حلها بنفسه.

فمن الطبيعي أن يتعرَّض الطفل للتوبيخ من المعلمة إذا لم يحل الواجبات المدرسية، ومن ثمَّ سيحرص بعدها على إتمام الواجب قبل الذهاب إلى المدرسة.

فيجب أن يتعلم الطفل منذ الصغر أنه مسؤول عن تصرفاته، ويجب عليه تحمُّل النتيجة بنفسه.

– عدم سماع الأم لنصائح الأب:

بعض الأمهات والآباء يخفى عليهم أن تربية الأولاد مسؤولية مشتركة بينهما، فتجد الأم تنفرد بتربيتها لهم وحدها دون الاستعانة بالأب، ويظهر هذا أكثر في حال عدم وجود الأب دومًا، وانشغاله في العمل أو السفر أو حتى مع أصدقائه، فتقوم الأم بدور الأب والأم معًا.

تشعر الأم حينها أن هذا الطفل مِلْك لها وحدها، ولا تتقبَّل نصائح الأب، فتفقد كثيرًا من الدعم والتوجيه؛ لأنه مهما كانت الأم حكيمة، وتجيد التربية فهي إنسانة تخطئ وتصيب، ولا يستطيع الإنسان أن يرى أخطاءه بوضوح مثلما يرى أخطاء الآخرين من بعيد، فتحتاج الأم إلى من هو حريص على أولاده مثلها، فيرى طريقة تربيتها من بعيد، ويعطي نصائحه لها، ويجب عليها أن تتقبَّلها بصدر رحب، وتستفيد منها وتأخذ ما فيها.

وهنا أرى أنه قد أخطأ الأب كثيرًا عندما رَضِيَ بأن يتعامل معهما معاملة الضيف، فكان يرى من بعيد أخطاءهما ولكَن لا يهتم، ولا يُصِرُّ على إصلاحها، بل يتركهما ويسافر بالشهور وكأن تربية ابنه لا تعنيه.

– عزل الابن عن الأب:

شعور الأم بأنها ضحت بكل شيء من أجل ابنها وأنها بمنزلة الأم والأب له؛ دفعها إلى فكرة عدم تقبُّل فكرة مشاركة أي أحد في حب ابنها لها، ولو كان والده.

ومن ثمَّ عَمِل عقلها الباطن على إيجاد دور آخر للأب غير دوره الأساسي، فتحوَّل دور الأب عندها وعند ابنها إلى دور البنك؛ فهو مصدر المال والهدايا فقط، ومع الوقت عَمِلَتْ على زيادة الفجوة بين آدم ووالده بقصد أو دون غير قصد.

– خوف الأم من لوم الأب أكثر من اللازم:

نظرًا لأن الأم اختارَتْ أن تربي آدم وحدها دون تدخُّل والده، فكانت تشعر أنه يجب عليها النجاح في ذلك بأيَّة طريقة.

فكانت تخاف من لوم الأب على أخطائها أكثر من خوفها من فشلها في تربية ابنها، فكانت تخفي على زوجها مشكلات ابنها، وتداري عليه خوفًا من العتاب، مما أدى إلى زيادة هذه المشكلات أكثر.

– تجنُّب مواجهة الابن بالأخطاء:

لأن الأم كما قلنا اختارت أن تُربِّي وحدها، فكان عقلها الباطن لا يتقبَّل أي فشل تقوم به.

فإذا رأت أخطاء من آدم سرعان ما تجاوزت هذا الخطأ، وفضّلت أن تُكذِّب نفسها وعينها على أن تعترف بأنها أخطأت في التربية، وتحاول تعديل هذا الخطأ.

فعندما عَلِمَتْ بأنه يتعاطى السجائر وأن له أصدقاء سوء، آثرت أن تُصدِّقه وتكذّب نفسها؛ حتى تشعر بالاطمئنان والرضا.

أجب بصراحة

- هل تتدخلين في جميع شجارات أولادك معًا، أو أطفالك مع أصدقائهم؟

.....

- هل تمارسين أيَّة هواية أو نشاط خاص بك غير الاهتمام بتربية الأولاد؟

.....

- في السوبر ماركت، هل تستطيع أن تقول لطفلك لا على شيء يريده؟

.....

- هل هناك قواعد معينة في البيت: (الوقت المخصَّص للتليفزيون مثلًا) وتحرص على التزام طفلك بها؟

.....

- وقت حل الواجبات المدرسية، طفلك لا يريد حل الواجب، كيف تتصرف؟

.....

- كيف تتقبلين نقد زوجك أو نصيحته لطريقة تربيتك لطفلك؟

.....

- إلى أي سن تقوم بالمذاكرة وحل الواجبات مع طفلك؟

.....

- لو علمتِ أن ابنك لديه أصدقاء سوء، أو علمتِ أنه يُدخِّن، كيف تتصرفين؟

.....

حب الإخوة

«أنا بكرهك!» هذه هي الكلمة التي كثيرًا ما سمعتها في بيتنا، بل تكاد تكون أكثر كلمة تتردد إلى أُذنيَّ، تجري على شفاه أولادي الاثنين طوال اليوم، يقولها بعضهم لبعض...

قصتي بدأت منذ خمس عشرة عامًا، عندما أنجبت طفلي الأول رامي، كنت كأيَّة أم لأول مرة أهتم به وأعتني به طوال الوقت، بدأت المشكلة بعدها بعامين، عندما أنجبت ابني الثاني حسن...

بدأت أهتم أكثر بحسن بما أنه الطفل الرضيع، ويحتاج إلى رعاية وعناية، أصبحت أنظر إلى رامي من حينها على أنه أصبح طفلًا كبيرًا، بل أحيانًا أنسى أنه طفل بالمرة، فكنت أتوقع منه التصرُّف بحكمة أكثر في جميع المواقف، بالذات مع أخيه الصغير.

زادت المسؤولية أكثر عليَّ، فكنت أنتهز فرصة نوم حسن لأُنجز كل مهامِّي المنزلية، فيأتي إليَّ رامي:

– ماما، عايزك تلعبي معايا.

– مش فاضية، روح إلعب دلوقتي في الأوضة عشان عايزة أخلص المواعين.

فيظل بجواري يلعب في أواني الطبخ، أو يذهب ويأتي بألعابه ليلعب بها جواري، فكنت أخاف عليه، فأصرخ فيه وأقول:

– امشي من هنا، حاجة هتقع عليك وتتلسع...

فيذهب بعيدًا لكنه لا يجد ما يفعله بمفرده، فيفتح التلفاز ليشاهد بعض الكارتون، فأصرخ فيه:

– إنت مش شايف أخوك نايم!! إقفل التليفزيون دلوقتي!! هتصحيه.

حتى حينما يكون حسن مستيقظًا ويذهب إليه رامي ليلاعبه، فكان والده سرعان ما يقول له:

«براحة عليه ده لسه بيبي» أو «متقرَّبش منه» أو «إنت كده هتكسر إيده».

فأصبح رامي يشعر أن حسن جاء إلى هذه الحياة ليفسد عليه حياته...

في يوم جاء إليَّ حزينًا، وقال:

– أنا بَكْرَه حسن، عايزُه يموت.

عندما سمعت هذه الكلمات لم أتمالك أعصابي وأُصَبْتُ بالجنون، فصحت فيه دون تفكير:

– إنت إتجننت؟! إزاي تقول كده على أخوك؟؟ عارف لو سمعت الكلام ده تاني!! هتضّرب!! إنت فاهم؟؟

كنت لا أعلم حينها أن هذه الكلمة ستكون أكثر كلمة أسمعها في المستقبل.

كنت أعتقد أن هذا التهديد سيجعله يتراجع عمّا بداخله... ذهب رامي غاضبًا ولم أسمعه يكررها ثانيةً في هذا السن، لكنه صار ينتهز فرص

غيابي عنهما، ويحاول إيذاء أخوه بأيَّة طريقة، مرة بالضرب، ومرة بالقرص وهكذا....

وكانتْ طريقتنا في التعامل مع هذه المواقف هي العقاب ثم العقاب...

> قال النبي ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

مرت الأيام وكبر الأخوَان، وبدأ حسن يعتمد على نفسه أكثر، فكان يأخذ حقه بنفسه، فبدأ هذا الإيذاء يقل تدريجيًّا، لكن في المقابل زادت المشاحنات بينهما أكثر.

كان هناك اختلاف واضح في شخصيَّتِهما، حسن يتميز بالذكاء الاجتماعي أكثر من أخيه، فكان يشاهد من بعيد الأخطاء التي يقع فيها رامي ويحاول تجنُّبها، أعتقد أن الطفل الثاني غالبًا هكذا... بجانب هذا، رامي كان لا يستطيع التركيز في أكثر من شيء في نفس الوقت، وكان بطيء الحركة على العكس من أخيه، الذي كان ينتبه إلى أحداث كثيرة في نفس الوقت، فكنت عندما أطلب من رامي أي طلب لا يستجيب بسهولة إذا كان مشغولًا بشيء، لكن حسن هو الذي كان يجيبُني سريعًا بدلًا منه، مما يضطرني الموقف إلى الصياح في رامي، أو إعطائه بعض المحاضرات عن تلبية نداء الأم.

ظهر هذا الفرق جليًّا عندما بدأنا الواجبات المدرسية، فكل يوم عندما يعودان من المدرسة يحدث هذا السيناريو:

– رامي، يلا شيل حاجتك وإقلع هدومك؛ علشان ناكل ونحل الواجب.

– ... رامي يجلس سرحان (من الممكن أن يكون مجهدًا)

فيأتي حسن مسرعًا:

– أنا قلعت هدومي وعِنت الشنطة.

– شفت أخوك خلص بسرعة إزاى من غير ما أقوله.

فيبدأ رامي بالحركة البطيئة الذهاب إلى حجرته. فأصيح فيه:

– يلا بسرعة، إنت بطيء كده ليه؟ إتعلم من أخوك الصغير!!

وعندما يأتي وقت الواجبات المدرسية:

– أخدت إيه النهارده في المدرسة؟ وريني.

– مش فاكر.

– لو ركزت شوية وبطلت السرحان ده هتفتكر.

وأجد نفسي لا إراديًّا أشير إلى أخيه، وأقول:

– يعني أخوك الأصغر منك خلص الواجب بتاعه إزاي، وعارف عليه إيه، وإنت لسه مبدأتش؟

كنت لا أنتبه إلى نظرات رامي لأخيه الممتلئة بالحقد، ولا نظرات حسن الممتلئة بالانتصار على عدوه.

عندما أتركهما بمفردهما، كان رامي يحاول بكل الطرق أن يبحث عن أخطاء لحسن، فإن لم يجد فيفتعل أيَّة مشكلة، لعلها تكون سببًا في نقدنا لحسن.

في يوم كانا سيشاهدان التلفاز معًا، وبما أن حسن هو الطفل المثالي من وجهة نظري أنا ووالده، فكان من نصيبه اختيار الفيلم الذي سيشاهدونه؛ كنوع من العقاب لرامي، لعله يَغِير من أخيه، فيتعلم منه سرعة الاستجابة، وتركناهما معًا... أخذ رامي الريموت ليغير الفيلم فصاح فيه حسن:

- أنا بتفرج، إنت قفلت ليه!!

- مش عايز الفيلم ده.

- بابا قال لي أختار أنا الفيلم.

- وبابا مش موجود دلوقتي، لو شاطر بقى تعالى خد الريموت.

فذهب ليحاول أخذه منه فرفصه رامي، فضربه حسن وبدأا الاشتباك بالأيدي ثم الصياح.

فدخل والدهما عليهما ووجدهما على هذه الحالة، فقرر غلق التلفاز لمدة يومين لمعاقبتهما.

شعر رامي حينها بالانتصار، وشعر حسن بالظُّلم، وأن رامي هو سبب عقابه ومشكلاته.

كل يوم يبتعد كلٌّ منهما عن الآخر، وتزيد الفجوة بينهما أكثر.

كنت أُطمْئِن نفسي، وأقول: حتمًا سيكبران وتقل مشاحناتهما ويصيران أصدقاء.

مر الوقت وكبر الأخوان، وعلى عكس المتوقع زادت مشاحناتهما أكثر، لكنها أصبحت ذات طابع آخر، وأسباب جديدة.

الآن كلٌّ منهم لديه حياته الخاصة، لا يسمح للآخر أن يخطو نحوها.

طوال اليوم كلٌّ منهما على هاتفه، وله أصدقاؤه.

حاولت كثيرًا أن أجمعهما على شيء واحد، لكن كان ردهما:

- لا أنا مبحبش اللي بيعمله.

- هو ماله بيا.

- أنا مش عايز أقعد مع حد.

فعندما أضغط عليهما ليشتركا معًا، كانت لا تمضي دقائق وأسمع مشاحناتهما، فكنتُ أضطر إلى معاقبتهما وسحب هواتفهما، فأسمع الكلمة الشهيرة:

«أنا بكرهه».

التعليق:

من رأيك ما الأخطاء التي وقعتْ فيها الأم؟

الأم هنا أخطأتْ بعض الأخطاء في كل مرحلة عمرية مر بها أبناؤها.

• أول مرحلة، وهي مرحلة الطفولة:

– الاهتمام بالطفل الصغير على حساب الكبير.

كانت الأم تهتمّ كثيرًا برامي، وفجأة عندما أنجبت أخاه حسن بدأت تُحوِّل كل اهتمامها إليه، دون أن تترك بعض الاهتمام لرامي، فشعر حينها بالتغيير المفاجئ، وعرف جيّدًا أن حسن هو السبب...

كان الأولى أن تهتم بصغيرها، لكن لا تضيع حق الكبير، فكان من الممكن أن تشاركه بعض نشاطاته الخاصة، خصوصًا وقت نوم حسن.

وأيضًا عندما تهتم بحسن، كانت من الممكن أن تخص رامي ببعض الوظائف الخاصة بالصغير، فمثلًا يساعدها في تغيير الحفاظات، أو استحمام الرضيع، أو تستعين به في تهدئة حسن عندما يبكي، عن طريق هَزّه أو قراءة بعض القصص له، وبهذا سيشعر أنه لم يأتِ مكانه، لكنه أتى لمشاركته في وقت والديهِ، وأيضًا لتسليته.

– عدم السماح للطفل التعبير عن مشاعره.

الخطأ الثاني: وهو من رأيي خطأ خطير في التربية، وهو عدم سماح الأم لرامي بالتعبير عن غضبه وعن مشاعره السلبية بالكلام، فعندما قال لها إنه لا يحب أخاه ولا يُريده، نهرته وعاقبته وهددته لكي لا يقول هذا ثانيةً، فبعدها قرر ألّا يعبر عن مشاعره مرة أخرى بالكلام، واستبدلها بالتعبير عنها بالأفعال، فبدأ يتفنَّن في إيجاد سبل لمضايقة أخيه؛ للتفريج عن مشاعره.

الأفضل أن تترك الأم طفلها يعبر عن مشاعره بحرية، بل وتتعاطف معها ولا تنكرها؛ لكي يشعر أن هناك أحدًا من الممكن أن يسمع له ويلجأ إليه وقت الغضب... ومن الممكن أن تُعلِّمه ألفاظًا جديدة ومسميات لمشاعره؛ لكي يستخدمها بدلًا من الألفاظ الغليظة، وتقول له إن هذه المشاعر مؤقتة؛ لأنه غضبان من أخيه في هذا الوقت.

- **المرحلة الثانية وهي مرحلة المدرسة:**

– المقارنة بين الإخوة.

كان الخطأ الكبير الذي وقع فيه الوالِدَان هو المقارنة...

إنهما لم يدركا أن هناك فروقًا فردية بين الطفل والآخر، فمن الممكن أن يكون رامي متميزًا في مهارة، وحسن لديه مهارات أخرى، لكنهما لم يبحثا عن الصفة المميزة في كلٍّ منهما ويُنَمِّياها أكثر، بل اختارا أن يأخذا بعض الصفات المميزة في حسن، والضغط على رامي ليَتَبَنَّى هذه الصفات، فكانت النتيجة أن رامي شعر بالإحباط، وقلَّت ثقته بنفسه؛ وكل هذا بسبب أخيه، فبدأ يشعر تجاهه بالكره والغيرة وربما الحقد، ومن ثمَّ بدلًا من أن يُنمِّي قدراته كما تصورت والدته، كان يبحث عن زلات وأخطاء لأخيه؛ ليثبت لهم أنه ليس ملاكًا كما يظنون.

– التدخُّل في التفصيلات والمشكلات الدقيقة بين الإخوة.

الخطأ الثاني في هذه المرحلة هو: التدخُّل الزائد بين الإخوة، فكان والداهما يتدخلان في كل كبيرة وصغيرة بينهما؛ حتى إنهما كانا يقرران من الذي سيختار البرنامج الذي سيشاهدانه على التلفاز، بل كانا يعطيان مميزات أكثر لواحد عن الآخر، ويقعان في خطأ تمييز بعضهم على بعض، فيشعر بعضهم بالظلم والغيرة. فمن الطبيعي في حل المشكلات أن تقف في جانب واحد، وتقرر من هو المخطئ ومن هو المصيب.

لكن الأفضل أن يترك الوالدان فرصة للأبناء، ولا يقومان بدور القاضي، فيضطر الأولاد إلى حل مشكلاتهم معًا دون تدخُّل، فتنمو عندهم القدرة على حل المشكلات والتعامل مع الآخرين.

• المرحلة الأخيرة في القصة وهي مرحلة المراهقة:

– الضغط على الأولاد للاشتراك في نفس النشاط.

كان الخطأ الذي وقعت فيه الأم هو إجبارهما على الاشتراك في نفس النشاط، مع علمها بأن هناك اختلافًا كبيرًا بين شخصياتهما.

فهناك شيئان من الممكن أن يؤديان إلى النفور بينهما:

– أنهما مختلفان فعلًا في الشخصية، وفي هذه الحالة ليس من الحكمة الضغط عليهما ليكونا متماثلين تمامًا، بل يجب أن تتركهما يختاران ما يحبانه، ومن الممكن أن تشارك كلًّا منهما في هواياته بعض الوقت.

– أن كل الأخطاء التي ارتكبها الوالدان في الماضي، قد أثرت بشكل كبير على علاقتهما ببعض، وهنا يجب أن تحاول الأم إصلاح ما أفسدته في الماضي من مقارنات وانحيازات لطفل على الآخر، ولكن يجب ألَّا تيأس، وتتوقع أن يأخذ الإصلاح وقتًا ومجهودًا أكبر.

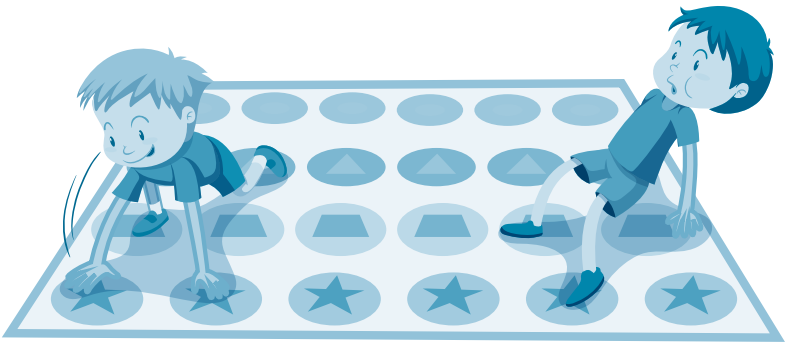

أجب بصراحة

- هل تسمح لطفلك بملاعبة أخيه الرضيع؟

.....

- طفلك الأكبر يقول «أنا مش عايز البيبي ده، يا رب يموت» كيف تتصرف؟

.....

- طفلك الأول متفوق دراسيًا أكثر من الثاني، هل تقوم بتشجيعه بأن يكون مثل أخيه؟

.....

- أولادك الاثنان يتشاجران، كيف تفض اشتباكهما؟

.....

- هل تضغط على أولادك أن يلعبوا نفس اللعبة أو يقوموا بنفس النشاط، حتى إذا أظهروا عدم رغبتهم في ذلك؟

.....

ولد وبنت

كان ترتيبي الثانية على إخوتي بين ست بنات، حضرتُ بعد ولادتي أربع ولادات أخرى، فكان وَالِدَايّ على أمل الحصول على الولد. بعد كل ولادة كان أبي يصاب بالإحباط، ويظهر ذلك جليًّا في معاملته مع المولودة الجديدة ومع أمي وحتى معنا، كانت والدَتي تحاول جاهدةً أن تأتي له بالولد، لكن ما باليد حيلة.

> قال رسول الله ﷺ: «لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ».

كبرتُ وتزوجتُ وحملتُ.....

كنت كلما أسمع هذا السؤال «نفسك في ولد ولا بنت؟» من صديقاتي، كان يتبادر إلى ذهني صورة وجه أبي المكتئب، بعد ولادة إخوتي وعدم لمسهم أو مداعبتهم لعدة أشهر، وفي بعض الأحيان معاملة والدتي المسكينة معاملةً سيئة عقابًا لها على إنجاب البنات.... لكن سرعان ما أجيبهم «كل اللي يجيبه ربنا كويس».

كنت أقول لنفسي الزمن غير الزمن، فأنا غير والدتي، وزوجي ليس كوالِدِي.

وحان وقت معرفة نوع الجنين، وجاء الخبر بأني سألد بنتًا، لا أخفي

عليكم أني حزنت وقتها مثل والدتي، وزوجي لم يفرح بهذا الخبر مثل والِدِي، ولكننا تظاهرنا بالرضا...

مرت الأيام ووصلت مَلَك إلى الحياة، وأحببناها، فهي ابنتنا الأولى...

لكن ما زلنا في انتظار الولد...

حملت مرة أخرى، لكن هذه المرة اكتشفنا أنه ولد، لن أستطيع أن أصف سعادتنا بهذا الخبر، بدأنا التجهيزات للمولود الجديد، جهَّزنا الملابس والمفروشات والألعاب التي تناسب الأولاد؛ استعداداتنا هذه المرة كانت أكبر بكثير من المرة الأولى.

رزقنا الله بعُمَر، وكانتْ فرحتنا به كبيرة، كانت مَلَك وقتها تخطت العامين من عمرها.

فرحت ملك بالطفل الجديد، فكانت تتمنى أن يكون لها أخ تلعب معه.

لكن من أول يوم كنت لا أثق أن أتركهما معًا بمفردهما ولو للحظات، كنت دائمًا بجواره، لا أسمح لها بلمسه، فإذا اقتربت منه أصرخ فيها حاسبي هيقع» «هتعوريه» «إبعدي عنه» وهكذا.... حتى ولو لم أكن موجودة، فكان والدها يقوم بهذه المهمة.

مع الوقت بدأت ملك تتجنَّب الاقتراب منه، وابتعدت عنه كثيرًا تجنُّبًا للمشكلات.

كبر عُمر قليلًا وبدأ يحبو، فكان يتسلَّل إلى ممتلكات ملك ويلعب بها،

وفي أحيان كثيرة يقوم بإتلافها، فتأتي ملك غاضبة لتشتكي منه، فكان ردي عليها: «إنتي اللي غلطانة وسايبة حاجتك في كل مكان، هو لسه بيبي ومش فاهم».

كَبِرَ عُمر أكثر وصار يطمع في الألعاب التي في يد ملك، فيحاول شدها وأخذها منها، فتأتي إليَّ وهي تبكي:

– عمر أخد اللعبة مني.

– ده لسه صغير، إنتِي هتعملي عقلك بعقله؟

مع الوقت عندما وجدت ملك أنني لن آخذ لها حقها، فقررت أن تأخذه هي، فلم تعد تأتي لتشتكي، لكن كانت تحاول أخذ حقها بنفسها، فعندما يهجم ليأخذ ممتلكاتها فكانت تصيح فيه وتبعده عنها، وفي بعض الأحيان تقوم بضربه، لكن إذا صادفت ورأيت منظر الشجار بينهما فكنت سرعان ما أتدخَّل وأصيح في ملك، أو أضربها إذا لزم الأمر، وإذا حاولت الدفاع عن نفسها فيكون الحوار كالآتي:

– هو اللي شدها مني.

– ده أخوكِي الصغير، سيبيهاله، إنتِي كبيرة، مينفعش تاخدي منه حاجة.

كانت في بعض الأحيان تعاند، وفي بعض الأحيان تستجيب وتستسلم للأمر الواقع، لكن في النهاية كانت تعلم أنها ليس من حقها الدفاع عن نفسها أو عن ممتلكاتها أمامه.

مرت الأيام وكبر عُمر وملك أكثر، كان عمر كثير الحركة كأيّ ولد، فكان يلعب هنا وهناك، لكن بعد الانتهاء من اللعب يترك ألعابه مكانه ويمشي، فكنت أطلب منه تنظيف مكانه لكنه لا يلتفت إليّ، وفي بعض الأحيان كان يتركني ويمشي، فكنت أنادي ملك وأطلب منها ترتيب الألعاب، فكان الرد الطبيعي منها

> **البنات رحمَة الله على الأرض، في كلّ بيت إذا كانَ الابن يحملُ اسم أبيه... فإن البنت تحمل أباها نفسه.**

– مش أنا اللي وسخت المكان.

– بس دي ألعابك وكده هتضيع.

– قولي لعمر، هو اللي كان بيلعب بيهم.

– عمر صغير ومش فاهم حاجة، ومش هيعرف ينظف، لكن إنتِي كبيرة وهتعرفي تنظفي.

– مش عايزه دلوقتي، أما أخلص الكارتون...

– يعني إيه مش عايزه؟؟ أما أقولك تنظفي يبقى تنظفي يا إما مفيش كارتون.

ففي النهاية كنت أقوم بإجبارها على التنظيف بالترغيب أو الترهيب.

وينطبق هذا الموقف في حياتنا أيضًا على كل شيء حتى الأكل، فإذا ترك أكله مكانه طلبت من أخته أن تأتي به، وإلّا عاقبتها إن رفضت...

وفي مرة من هذه المرات كان عمر وملك يشاهدان التلفاز، وطلب مني

عمر كوب عصير، فجهَّزته له وجهزت كوبًا آخر لأخته وناديتهما لكي يأخذا العصير، لكن كالعادة لم يلتفت عمر، فناديت ملك بصوت مرتفع أكثر لتأتي وتأخذ العصير، وبالفعل جاءت وأخذت كوبها وتركت كوب عمر، فطلبت منها أن تأخذ الكوب الآخر لتعطيه لعمر، فرفضت فصرخت فيها لا إراديًّا بكلمات من عقلي الباطن لم أكن أدرك أنها بداخلي إلا حين قلتها:

– إديهوله علشان هو قاعد بيتفرج على التليفزيون.

– أنا كمان كنت بتفرج على التليفزيون، وجيت علشان آخده.

– هو ولد، لكن إنتِي بنت، المفروض إنتِي اللي تناوليه العصير، وإسمعي الكلام وإنتِي ساكتة.

– إنتِي مبتحبينيش، إنتِي بتحبي عمر بس عشان هو الولد.

وانفجرت في البكاء، فرددت عليها مسرعة:

– إزاي تقولي كده؟ أنا بحبكوا انتوا الاتنين.

– لا إنتِي دايمًا بتقفي في صفه وبتزعقيلي علشانه، ودايمًا بتعمليله اللي هو عايزه، لكن أنا لأ.

وقفت وقتها مع نفسي وسألتها هل أحبه أكثر حقًّا؟

الإجابة كانت لا بالطبع، أحب الاثنين كثيرًا فهما أولادي، لكن هناك شعور زائد تجاه عمر لا أعرف مصدره، وليس لديَّ هذا الشعور تجاه ملك.

هذا الشعور هو شعور الخوف من الفقد، فأنا كثيرًا ما تمنيت أن يرزقني

الله بولد، فرزقني بهذه المكافأة العظيمة، فأصبحتُ أخاف عليه دائمًا، وأحافظ عليه وعلى شعوره بصورة زائدة، لعلِّي إذا ضايقته أو لم أُلبِّي رغباته فمن الممكن أن أفقده... هذا الشعور الغريب ينتابني في كل مرة أطلب منه أي طلب...

في المدرسة كان مستوى ملك الدراسي أعلى من عُمر، تمنيت للحظة أن يكون العكس هو الصحيح، فهو ولد والتعليم بالنسبة إليه أهم؛ للحصول على حياة وعلى وظيفة أفضل في المستقبل، لكن ملك في النهاية بنت، ومنذ طفولتي وصورة البنت في ذهني هي مجرد رقم ينجبه الآباء، إلى أن يصلوا إلى الولد...

حاولتُ معه لتحسين مستواه الدراسي، لكن كالعادة كنتُ لا أستطيع أن أثقل عليه أو حتى أنتقده، فكنت أعطي له الأعذار المتتالية، تارة هو ولد فمن الممكن أن يكون لديه طاقة أكثر، فلا يستطيع الجلوس لأداء الواجب، وتارة المعلمة هي السبب وهو لا يفهم منها جيدًا.

لم أُلْهُ مرة واحدة على تقصيره في الأداء الدراسي، بل كنت أفرح بأيَّة نتيجة له.

ولأن عُمر لا يخضع لأية قواعد في البيت خوفًا على مشاعره، فقد كانت تأتيني الاستدعاءات من المدرسة؛ للشكوى من سلوكه مع زملائه ومع المدرسين، وكانت الجملة الشهيرة من المدرسة هي: (عمر لا يحترم القواعد) فكيف يحترمها وهو لا يخضع لأيَّة قاعدة، ولا يعرف حتى معنى الالتزام!

كنت بدلًا من أن ألومه على تصرفاته، كنت أتصيَّد الأخطاء لملك لأنفِّس عن غضبي فيها.

واستمر الحال هكذا، عمر الآن في سن المراهقة، وبدأ يصاحب أصدقاء السوء ويتعاطى السجائر، ولا أستطيع تقويمه، فهو لا يسمع لأحد أبدًا.

وملك أصبح عندها يقين بأنها بوصفها بنتًا، تكون أقل قدرًا من أي ولد، ولديها انهزام نفسي أمام الأولاد، فهي تعتبر نفسها درجة ثانية...

التعليق:

واضح من القصة أن الأم تكوَّن لديها تصور غير سوي تجاه الفرق بين الأولاد والبنات؛ بسبب والديها، ورغبتها الملحة في إنجاب الولد، وللأسف استطاعت نقل هذا التصور الخاطئ إلى أولادها.

هناك بالفعل اختلاف طبيعي بين الأولاد والبنات، اختلاف فيسيولوجي، واختلاف في تصرفاتهم، واختلاف في ميولهم وهواياتهم، وهذه الاختلافات من الممكن أن تؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف في معاملتهم وطرق تربيتهم.

لكن الاختلاف يكون فقط في طرق التربية، وليس ثوابت التربية.

الاثنان يجب تقويمهما وإرشادهما، يجب تعليمهما احترام القواعد، يجب تعليمهما جميع الآداب.

لكن الاختلاف من الممكن أن يكون في طريقة التطبيق لمراعاة الفروق في شخصيتهما، مثلًا الولد بطبيعته متحرك أكثر، فمن الممكن ألَّا تتوقع منه

الجلوس لأوقات طويلة على عكس البنت؛ فيترتب على ذلك وضع القواعد المناسبة لكل شخصية، وهكذا...

في النقاط التالية سأقوم بتعديد الأخطاء التي وقع فيها الأبوان:

– عدم السماح للطفل بالاقتراب من المولود الجديد.

من الأخطاء التي يقع فيها بعض الآباء هي: عدم السماح للطفل الكبير بالاقتراب من المولود الجديد، أو الطفل الصغير؛ اعتقادًا منهم أنه سيؤذيه، فبدلًا من أن تُشجِّع الطفل الكبير بالتعلُّق بالطفل الجديد وتَقَبُّلُه، فتقوم بإخافته منه، وبناء سور بينهما دون أن تدري.

كان من الممكن أن تقوم الأم بإشراك الطفل الكبير في بعض المهام البسيطة الخاصة بالرضيع، مثل تغيير الحفاظات، تغيير الملابس، أو مداعبته وهي تشاهدهم من قريب وتشرِف عليهم؛ حتى تتجنَّب أي خطر من الممكن أن يحدث.

– عدم التعاطف مع مشاعر الطفل.

عندما جاءت ملك لتشتكي من أخيها الصغير الذي أتلف ممتلكاتها، أوقفتها الأم بشدة ولن تسمح لها بالشكوى. فقررت ملك ألّا تشتكي بعدُ، وتقوم بأخذ حقها بنفسها.

فكان واجبًا على الأم السماع إلى البنت، وترك مساحة لها للتعبير عن مشاعرها بالكلام، بل وتسمعها جيدًا وتتعاطف معها ومع مشاعرها؛ لأنه من الطبيعي أن يغضب أي إنسان إذا أُتلفت ممتلكاته.

فإنها فرصة عظيمة لأيَّة أم أن تترك أولادها يعبرون عن غضبهم بالكلام؛ لأنهم إن لم يقوموا بهذا، فسيستخدمون طرقًا أخرى للتعبير عن غضبهم، مثل الضرب، والصراخ أو نوبات الغضب.

– إنتِي الكبيرة.

اعتبرت الأم أن ملك طفلة كبيرة، فليس لها أي حقوق وأي خلاف بينها وبين أخيها الصغير، هي قضية خاسرة بالنسبة إليها.

بالتأكيد تصرفات الطفل والمعاملة معه تختلف على حسب سنه، لكن في جميع الأحوال يجب تقويم الخطأ، لكن بالطريقة المناسبة لسنه، فليس معنى أنه طفل صغير أن يخطئ كما يشاء، بل يجب إيقافه وتعليمه بأسلوب يناسبه.

– إنتِي بنت وهو ولد.

مما لا شك فيه أن هناك اختلافات بين الولد والبنت، لكن هذه الاختلافات ليس معناها تفضيل بعضهما على بعض، ولا معناها خدمة البنت للولد.

فكل طفل مسؤول عن تصرفاته، ويجب أن يخدم نفسه.

فمن الظلم أن تقوم البنت بترتيب الألعاب التي قام ببعثرتها الولد، فقط لأنها بنت!

وليس من العدل أيضًا أن تقوم البنت بخدمة الولد لاختلاف نوعها.

فيجب تعليم الأطفال جميعًا أن كلًّا منهم مسؤول عن خدمة نفسه، ولا مانع من تقديم المساعدة للآخر، لكن من باب الأُخُوَّة والحب، ليس من باب خدمة البنت للولد.

– الخوف المبالغ فيه مفسد للتربية.

عندما أفرطت الأم في الخوف من فقد الولد الذي كثيرًا ما تمنته، فكانت عاطفة الخوف والشفقة دائمًا هي المسيطرة عليها، وتمنعها دائمًا من تقويمه وتربيته تربية صحيحة.

فدلَّلته وأنشأت طفلًا أنانيًّا، غير مسؤول، تابعًا لأصدقائه، ضعيفًا في الدراسة وفي كل نواحي الحياة.

– عدم وضع القواعد.

عندما خافت الأم على طفلها خوفًا مبالغًا فيه، فتجنَّبت وضع القواعد له خوفًا على مشاعره.

فكانت النتيجة أنه كان لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب، وكان لا يتحمل وضع قواعد له في المدارس.

فالإنسان عمومًا والطفل خصوصًا دون قواعد وحدود؛ مثل الإنسان الذي ليس له بيت يجلس داخله في اطمئنان، فَيَتُوه خارِجَهُ، ولا يجد من يُوجِّهه.

فحقًّا، علينا وضع قواعد تجاه أولادنا، وتنفيذها، والحزم فيها.

أجب بصراحة

- هل تشتري ألعابًا وملابس لطفلك الولد أكثر من البنت؟

.....

- متى آخر مرة استخدمتَ كلمة «إنتي الكبيرة، متعمليش عقلك بعقله»؟

.....

- هل تطلب من ابنتكَ تنظيف حجرة أخيها، أو مناولته الماء أو العصير؟

.....

- هل تطلب من ابنك تنظيف حجرة أخته، أو مناولتها الماء أو العصير؟

.....

- هل تقوم بوضع قواعد في البيت، مثل تحديد موعد للشاشات، أو وقت النوم وتحرص على التزامهم به؟

.....

التزام الآباء وتفريط الأبناء

هذه القصة مختلفة قليلًا، في هذه المرة القصة ستكون بروايتين مختلفتين من وجهتي نظر مختلفتين....

سنبدأ أولًا برواية الأم.... اسمعوا معي.

«بحاول دايمًا أكفَّر عن اللي عملته وأنا صغيرة».

أنا من بيت عادي، ليس متدينًا جدًّا ولا مفرطًا جدًّا، بيت متوسط كما باقي البيوت المصرية.

كباقي البنات في سني لم أرتدِ الحجاب إلا بعد أن تزوجت وأنجبت ابنتي، حتى حين حاولت ارتداء الحجاب في مرحلة الجامعة تلقيت كثيرًا من التعليقات والإساءات والاستهزاء، فلم أستمر فيه. لم يكن الحجاب مشهورًا وقتها، بل لم يكن أحد يتكلم في الدين والوعظ.

بدأت القصة عندما انتشرت القنوات الإسلامية في التليفزيون، كنت أحب أن أسمع الشيوخ، وتأثرت بهم كثيرًا... بدأت أتردد إلى المسجد وأحضر الدروس وأحفظ القرآن وأكوِّن صداقات في المسجد... ما أروع الصداقات والحب في الله!

بدأت أدرك أن حياتي السابقة كانت فيها عديد من الأخطاء.

وبدأت تطبيق هذا على حياتي الحالية، وعلى ابنتي.

فعلى سبيل المثال، لم أحب رؤية ابنتي تلعب في وقت الصلاة منذ كانت صغيرة، أشعر حينها أنها استهزاء بشعائر الله، فلم أقبل منها ذلك.

عندما بلغت سن السابعة بدأت أعلِّمها الصلاة الصحيحة، وأشدد على صحتها أكثر، كنت مهتمة أكثر بدينها عن ذي قبل.

أدعوها للصلاة ولحفظ القرآن، لكن كنت أرى منها النفور وعدم الرغبة في ذلك، فكنت أشدِّد عليها أكثر؛ لأنني لا أريدها أن تكون مثلي في صغري.

عندما كنت أقسو عليها لتصلي، كانت تدخل حجرتها وتعود، وتدّعِي أنها كانت تصلي، لست متأكدة إذا كانت تصلي فعلًا أم لا، لكن لا أملك لها إلا الدعوة.

حاولت كثيرًا دعوتها لمشاهدة الكارتون الإسلامي، لكنها لم تستجِبْ أيضًا. فكنت أتركها تشاهد ما تشاء، وأكتفي أنا بمشاهدة البرامج الإسلامية، مع الوقت أصبح لكلٍّ منَّا برامجه واهتماماته الخاصة.

كنت أذهب معظم أيام الأسبوع إلى المسجد، وأتركها في المنزل حتى لا تُفْقِدَنِي تركيزي وقت حفظ القرآن.

كبرت البنت وبدأت مرحلة المراهقة والبلوغ، وكان واجبًا عليَّ إلزامها بالحجاب.

علَّمتها شروط الحجاب الشرعي، لكن بحكم أنها صغيرة ولا تستطيع أن

تلتزم بالحجاب الكامل في هذا السن، فكنت أختار لها مثل ما تلبسه البنات في سنها، وأقول في نفسي: «البنت لسه صغيرة، أسيبها تستمتع بنفسها وشكلها شوية قبل ما تكبر وتلبس الحجاب الشرعي، وبعدين أنا ياما لبست وأنا في سنها وتُبْت أهو دلوقتي الحمد لله».

في مقابل ذلك كنت ألتزم أكثر في حجابي حتى لبست النقاب؛ حتى أستغفر الله على ما بَدَرَ مني في شبابي.

بدأت ابنتي تكبر أكثر، وتشعر أكثر بنفسها وبجمالها وبأنوثتها، فبدأت أدعوها لتحسين ملابسها، واختيار الملابس الملتزمة أكثر، لكن بالعكس كانت تخرج مع صديقاتها وتشتري ملابس أقل التزامًا من سابقها، حتى ترتدي ما يحلو لها مثل صديقاتها.

ما كنت أستطيع فعله فقط هو الدعاء لها بالهداية.

مع الوقت زادت الفجوة بيننا كثيرًا، كلٌّ منا له حياته الخاصة.

كلما أتحدث معها أكثر تبعد عني أكثر....

والآن حان دور البنت...

عندما التزمت أمي دينيًّا كنت صغيرة في السن، لكنني شعرت أن هناك تغييرًا ما قد طرأ في حياتنا.

كنت كأيَّة طفلة أحب أن أُقَلِّد والدتي، فكلما رأيتها تصلي أجري عليها وأقف بجوارها أو أمامها، وأقلِّد حركاتها كأنني أُصلي، لكن بحكم أنني

طفلة صغيرة فطبيعي أن تكون حركاتي كثيرة. فكنت أُفاجأ بعد الصلاة بدلًا من أن تشجِّعني، وتُصفِّق لي كما كنت أتوقَّع، كانت تصيح فيَّ وتقول:

«إنتِي مش مخلياني أركز في الصلاة» «متلعبيش وإنتِي بتصلي» «صلي صح» «إلبسي الطرحة الأول» «لازم تتوضي قبل الصلاة».

مع الوقت شعرتُ أنَّ القدوم على خطوة الصلاة ثقيلة ومُتْعِبة، وأصبحت غير مهتمة بتقليدها وقت الصلاة مرة أخرى.

أيضًا بمناسبة الحديث عن التقليد، فعندما كنت أقلِّد والدتي، وألبس طرحة من حجاباتها، كانت تصيح فيَّ لأنني أعبث بهم، حتى لم أعد أهتم بتقليد أي شيء آخر تفعله.

كبرت قليلًا وبدأت والدتي تُعلِّمني طريقة الصلاة الصحيحة، فرحت قليلًا لأنني سأُصلي بجوارها دون صياح، لكن بالعكس لم يحدث ما توقعت...

كانت تجلس والدتي في غرفتها أو غرفة المعيشة ومعها تليفونها، وتناديني كي أصلي وحدي... «لماذا وحدي؟؟ كم تمنيت أن أصلي بجوارها وأقلِّد حركاتها بحب!».

عندما كنت أتكاسل كنت أسمع ما لا يَسُرّ من صياح عليّ.

فكنت أدخل حجرتي بعض الوقت وأرجع لها، بعض الأوقات أصلي فعلًا وأحيانًا أخرى أدَّعي أنني صليت؛ حتى أتخلَّص من هذا الحديث.

هذا بالنسبة إلى الصلاة، أما القرآن فكنت أعلم أن والدتي تذهب إلى المسجد لحفظ القرآن، كنت أتمنى أن أذهب معها وأحب المسجد.

حدث وأن ذهبت يومًا معها، كان هناك امرأة كبيرة في السن، يبدو أنها مُحفِّظة القرآن التي تُحفِّظ والدتي، طوال الحلقة كانت تعلِّق على كل حركة أتحرَّكها، وكل نفس أتنفَّسه، كنت أشعر أنها تتمنى مرور الوقت حتى أذهب إلى المنزل ولا أعود ثانيةً. لم أحب المسجد من وقتها، حتى والدتي شعرت بالإحراج بسببي، وبعدها لم تعرض عليَّ الذهاب معها قط.

في البيت كانت لا يحلو لها أن تناديني لأحفظ القرآن إلا وقتما تراني مستمتعة باللعب، أو بمشاهدة التليفزيون في منتصف الحلقة.

لم تجلس معي لتقوم بتحفيظي القرآن بنفسها، لكن كانت تكتفي بإعطائي التسجيل كي أحفظ منه، وإن لم أستطع فعل ذلك كانت تُوبِّخني وتعاقبني.

لم أحب وقت حفظ القرآن قطُّ.

أما وقت التليفزيون، كانت والدتي تأتي لتُغيِّر لي القناة إلى كارتون قديم غير مفهوم، وتقنعني أن هذا الكارتون هو الأفضل، أنا لا أفهم ماذا يقول وماذا يريد.

إن لم أوافق على مشاهدته، كانت تعطيني المواعظ والدروس.

> ذلك الطفل الذي تطرده من المسجد بسبب الفوضى، هو نفسه ذلك الشاب الذي سوف تترجاه غدًا ليصلي في المسجد.

كرهت الالتزام، شعرت أنه قيَّد أشياءَ كثيرة في حياتنا، وأصبح السبب في الجفاء والبُعد بيني وبين والدتي، تمنيت لو كنتُ مكان أصدقائي الذين لا يهتم أهلهم بالدين.

المسجد وأصدقاء المسجد كانوا أهم مني عند والدتي.

من الممكن أن أستيقظ صباحًا، ولا أجد ما آكله لأن والدتي في المسجد، أجلس وحدي بالساعات في أوقات أحتاج إليها فيها؛ لأنها مشغولة مع صديقاتها، أرى والدتي تضحك وسعيدة عندما تتحدث مع صديقاتها في التليفون، وعندما تضع سماعة التليفون تعبس في وجهي مباشرةً، وتبحث عن أي شيء أفعله يستحق أن تعطيني عليه المواعظ والدروس.

لكن في النهاية والدتي طيبة جدًّا، أعلم جيدًا أنها تقوم بإعطائي هذه الدروس الطويلة من باب إنكار المنكر، ولا تتوقع مني في نهايتها شيء فهي: «بتعمل اللي عليها».

فإذا رأتني أشاهد أي مسلسل أو فيلم، حتى لو لم يكن مناسبًا كانت «تديني الكلمتين وتخلص ضميرها وتقول: ربنا يهديكِي في الآخر، وتسيبني وتمشي» وأنا أكمل مشاهدتي في هدوء.

حينما تراني أخرج بملابس ضيقة أو قصيرة «تديني كلمتين في جنابي» وبعدها تتركني أخرج...

كنت الأول أهتم بما تقوله، ولكن مع الوقت قل اهتمامي، الآن أنا لا

أسمع ما تقوله، فقط أنتظر كلمة ربنا يهديكِي التي تدل على انتهاء الحديث...

الآن أصبح لي حياتي الخاصة وأصدقائي، وهي لها حياتها وأصدقاؤها.

ليست هناك مساحة مشتركة نقف فيها معًا، وليس لدينا مواضيع أو اهتمامات واحدة نتحدث فيها معًا.

التعليق:

هذه القصة ليست دعوة إلى عدم الالتزام الديني، لكنها انعكاس لواقع يعيش فيه كثير من الأُسَر، يلتزم فيها الوَالِدَان، وينحرف فيها الأولاد.

فهذه القصة محاولة لتحليل الأسباب المؤدية إلى هذه النتيجة غير المتوقعة.

من وجهة نظري، ومن خلال مواقف القصة، هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذه النتيجة، منها:

- تنفير الطفل من المسجد:

من الأخطاء الكبيرة التي يقع فيها بعض روَّاد المسجد هي عدم الاهتمام بتحبيب الأطفال في المسجد؛ فبعض الناس يعتبرون المسجد مكانًا للصلاة فقط، ولا يصلح لدخول الأطفال، مع إن المسجد يجب أن يكون المركز الرئيسي للمسلمين، وخاصةً الأطفال، فينشأ الطفل على التعوُّد على المسجد وحُبِّه منذ الصغر.

– عدم انتهاز الفُرَص:

الطفل الصغير يحب تقليد والديه، ويعتبرهما مثله الأعلى، لكن الأم لم تنتهز هذه الفرصة، ولم تهتم بتحبيب ابنتها في الصلاة والحجاب والاقتراب منها، ولكنها اهتمت فقط بكيفية الصلاة، واعتبرت أن وقوفها معها وقت الصلاة عبث في الصلاة، في حين أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يسمح لأحفاده الحسن والحسين بالتسلُّق على ظهره وهو ساجد.

– الصلاة مع الأولاد:

السر في التزام الأولاد في الصلاة هو الصلاة معهم، لا تتوقع أنك تجلس مكانك، وأولادك يقومون إلى الصلاة بمفردهم، يجب عليك تشجيعهم والصلاة معهم.

– اختيار أوقات مناسبة للقرآن:

لا تجعل الطفل يشعر بأن القرآن واستمتاعه بوقته متعارضان دائمًا، فاختيار الوقت المناسب، أو تثبيت وقت معين في اليوم للقرآن هو الحل المناسب، وتجنُّب الأوقات التي يكون الطفل فيها منشغلًا بشيء. ويجب الجلوس وتحفيظ الطفل القرآن بنفسك، خصوصًا في السن الصغيرة.

– طريقه الدعوة:

من الأشياء التي يغفل عنها الكثير هي طريقة الكلام، وخصوصًا الدعوة إلى الله، فطريقة الكلام أهم بكثير من الكلام نفسه.

لأعطيك مثالًا، إذا ضربت طفلًا صغيرًا وأنت مبتسم وتلعب معه، سيفرح الطفل، ويعتبر هذا لعبًا وليس عقابًا، لكن فقط لو لمست نفس الطفل وأنت غاضب، سيفهم الطفل حينها أن هذا عقاب وليس لعبًا. فالطفل يفهم تعبيرات الوجه، وطريقة الكلام أكثر من الكلام نفسه.

فإذا كانت طريقة الدعوة كلها شدة ومواعظ ودروس ودعاء بالهداية، فهذه الطريقة لن تأتي بالثمرة التي تريدها، بالعكس من الممكن أن تؤدي إلى نتيجة عكسية كما في القصة.

فلتجعل طريقتك للدعوة خاصة للأولاد كلها حب ولين، ومساعدة في الخير، والأهم من ذلك القدوة الحسنة.

– المتابعة (consistency)

من الأسباب الأساسية لعدم اهتمام الطفل بما تقوله والدته هو عدم المتابعة أو unconsistency. فترى الأم تطلب من بنتها تنظيف حجرتها وتذهب لتقوم بالانتهاء بأشغالها، وتعود مرة ثانية بعد ساعة، وتستنكر لماذا لم تُنظِّف الحجرة؟؟ وهكذا إلى أن تفقد الأمل وتُنظِّفها بنفسها. تعلم البنت حينها أن كلام الأم هو مجرد كلام مرسل، ليس طلبًا جادًّا، فلا تهتم بما تقوله الأم.

وكذلك في الصلاة والعبادات، يجب أن يكون هناك متابعة للطلب، فلا تتوقع أن يقوم الطفل بنفسه للصلاة؛ لأن هذا يحتاج إلى مدة طويلة للتعوّد

على الصلاة، والأفضل من ذلك كما قلت سابقًا هو الصلاة مع أولادك، فبذلك تكون قد أظهرت القدوة الحسنة، والمتابعة في نفس الوقت.

– فقه الأولويات.

في بعض الأوقات يفقد الأهل البوصلة، فتجد الأهل يهتمون بقشور الأمور الدينية، ويتركون ما هو أهم منها، وفي بعض الأحيان يهتم الوالدان فقط بالالتزام الديني، ويتركون الأولاد بحجة أنهم (لسه صغيرين، خليهم ينبسطوا) فتجد الأم التي لم تعد شابة تلتزم بالحجاب الشرعي أو النقاب، وابنتها الشابة التي فُرِضَ عليها الحجاب لم تتحجب بعد، أو تتحجب حجابًا غير مناسب.

– الأولاد أولًا:

من الأخطاء المهمة التي وقعت فيها بطلة القصة هي الاهتمام بصديقاتها أكثر من ابنتها، حتى إن لم تكن هذه الحقيقة لكن هذا الشعور وصل إلى ابنتها، ولم تهتم هي بإثبات العكس.

فيجب أن تُشعِر أولادَك بأنهم الأهم، أهم من الأصدقاء، أهم من التليفون، أهم من التليفزيون، أهم من المطبخ... فهم الأولوية في حياتك، يجدونك عندما يحتاجون إليك.

أجب بصراحة

- في صلاة التراويح، جاءت أم ومعها أطفالها لتُصلِّي، هل تشعرين بالضيق من وجودهم بالمسجد حولك؟

.....

- هل تسمحين لطفلك الصغير بالحركة في أثناء الصلاة وقراءة القرآن؟

.....

- عندما يحين وقت الصلاة، هل تنتظر طفلك حتى يصلي معك، أم تأمره بالصلاة وحده؟

.....

- هل تختار وقتًا مناسبًا للقرآن، أم لا تهتم إذا كان طفلك مشغولًا بشيء آخر؟

.....

- متى آخر مرة أعطيت طفلك درسًا أخلاقيًّا طويلًا؟

.....

- ما هو الوقت المُفضَّل لك، والذي تستمتع به أكثر: قضاء وقتك مع أصدقائك أم مع أولادك؟

.....

التربية في الغرب

«الآن أتمنى أن يعود بي الزمن كي أصلح ما أخطأت»

حكايتي بدأت منذ سنوات عديدة، لم أشعر بمرورها إلا بعد أن انتهت، فكما يقولون «الغربة تسرق العمر».

بدأَتْ عندما تزوجْتُ زوجي الذي كان يَدْرُس حينها في الولايات المتحدة وسافرتُ معه، حينها كان سفرنا مؤقتًا لحين الانتهاء من دراسته، واتفقنا على أن نعود معًا بعدها إلى بلدنا.

كانت الغربة صعبة بكل الأحوال بالنسبة إليَّ...

سفري أول مرة في حياتي، في بداية زواجي، في بلد أجنبي، بلغة مختلفة وعادات وتقاليد مختلفة، لم يكن كل هذا بالشيء الهيِّن.

افتقدت أهلي وبلدي كثيرًا، كنت أتمنى لو أعود قريبًا لهم.

وعلى الجانب الآخر، أو كما يقال إذا نظرنا إلى نصف الكوب الممتلئ، فقد رأيت بلادًا جديدة، ونظام وحياة مرفهة أكثر مما تعودت عليه.

أعجبني نظام الشوارع، والمواصلات، ومترو الأنفاق، ورفاهية البيوت، وسهولة العيش، ونظام العمل والاجتهاد، حتى التسوُّق في السوبر ماركت له طابع خاص وله نظامه، ليس هناك غش أو سرقة أو كذب على المشتري...

مر العام الأول بحلوه ومُرِّه، وحملتُ وأنجبتُ ابنتي الأولى، أسميناها ماريا؛ حتى يكون اسمها متداولًا هنا وسهل النطق، فتستطيع الاندماج هنا بسهولة دون تنمُّر على اسمها.

بعدها بعامين أنجبت يوسف.....

في خلال رحلتي، في خلال متابعة الحمل والولادة، في المرتين، بُهِرت جدًّا بالمستوى الصحي العالي في المستشفيات، والاهتمام بالمرضى وراحتهم، ومستوى النظافة وطريقة معاملة المُمرِّضات... تذكرتُ حينها عملي وقتًا قصيرًا قبل سفري في القصر العيني، وتذكرتُ معاناة المرضى هناك من كل النواحي.

تعرَّفتُ في بداية الغربة إلى مجموعة من العرب المسلمين في المسجد، كنت ألقاهم وأخرج معهم في بعض الأحيان؛ حتى أتيح لأولادي فرصة للقاء أطفال آخرين، وأيضًا حتى لا نشعر بالوحدة...

كنت غالب الوقت أتحدث مع أولادي باللغة الإنجليزية؛ حتى يستطيعوا إتقان اللغة، ويسهل عليهم دخول المدرسة بعد ذلك.

كثيرًا ما كان ينتقدني البعض في هذا، فكانوا يقولون إنهم سيتعلمون حتمًا اللغة الإنجليزية، فلا داعي لممارستها الآن، ويجب أن أعلمهم اللغة العربية لأنني المصدر الوحيد لها، كان كلامهم صوابًا وحقيقيًّا، لكن طريقتهم في النقد كانت تنفِّرني من أخذ كلامهم في الاعتبار.

مرت السنوات وكبر أولادي ودخلوا المدرسة الأمريكية العامة...

عندما دخل الاثنان مرحلة المدرسة أصبح لديَّ وقت فراغ طويل، قررت حينها أن أكمل دراستي، وأبحث عن عمل حتى لا أشعر بالوحدة، خصوصًا أن كل من حولي كان يُشعرني بأني أقل قدرًا منهم؛ لأنني لا أعمل، فكلٌّ منهم إما أنه يَدْرُس وإما يعمل أوقاتًا طويلة.

> «الغرب لن يحترمونا إلا إذا احترمنا نحن قِيَمنا ومبادئنا».
> (عمر عبد الكافي)

بدأت أبحث حتى وجدت فرصة للدراسة والتدريب، وبعدها أستطيع الحصول على العمل.

في خلال مدة التدريب كنت أشعر أن من حولي ينظرون إليَّ وإلى حجابي، ويشعرون بأنني أقل ذكاءً منهم، أو لست على قدر من التعليم العالي مثلهم، فقط لأنني أرتدي غطاء الرأس، فكنت أشعر بالاستهانة بي.

بدأت حينها أغيِّر في طريقة لبسي، وأنتقي ملابس متحضِّرة أكثر مع الحجاب، ولا مانع من إظهار بعض من العنق واليدين؛ حتى أظهر بشكل عصري أكثر.

مع بداية مدارس الأولاد كانت هناك بعض الاحتفالات الجديدة بالنسبة إليَّ، والتي لم أسمع عنها من قبل، لكنها كانت تبدو احتفالات ممتعة للأطفال.

فبدأت بحفلة الهالوين في نهاية شهر أكتوبر، سألت معارفي في المسجد عن هذا العيد، فقالوا إن الأطفال يرتدون أزياء رعب، ويخرجون ليلًا يطرقون على أبواب البيوت حتى يفتح لهم صاحب البيت، ويعطيهم بعض الحلوى.

لكنهم نصحوني بعدم الاشتراك في هذه المناسبات، حتى لا يتعلق قلبهم بها وتصبح هي أعيادهم المفضَّلة، ويفقدون الهوية.

> قال رسول الله ﷺ: «لتتبعُنَّ سُنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه».

فكرت في نصائحهم، لكن في النهاية قررت الاشتراك معهم في هذا العيد، فأنا أعلم جيدًا أنه سيسعدهم كثيرًا، وأيضًا بما أن أولادي سنهم صغيرة فلا مانع من بعض الاندماج، فهو لن يؤثر فيهم إلى الأبد.

وبعد انتهاء الهالوين ظهر عيد الشكر بما فيه من تزيين البيت بألوان الخريف وتقديم الديك الرومي، وبعدها الكريسماس، والفالنتاين، والأعياد التي لا تنقطع.... لكن في النهاية كانت تُدخِل البهجة عليَّ وعلى أولادي، فهي أعياد جديدة وممتعة بالنسبة إلينا.

أعترف أننا قصَّرنا في احتفالنا بأعيادنا الأساسية: (عيد الفطر، وعيد الأضحى) فلم يكن احتفالنا بهم بهذه الجودة، فمن الصعب الاحتفال بعيد إسلامي في بلد غير مسلمة.

كان العيد يأتي في وسط الأسبوع دون أخذ إجازات، فكان زوجي يذهب إلى عمله بعد أداء صلاة العيد مباشرةً، وأولادي يذهبون إلى المدرسة في يوم دراسي عادي.

فلم يكن هناك طقوس أو طريقة في الاحتفال معينة، فاستبدلنا فرحة العيدين بالأعياد الأخرى؛ حتى أدخِل السرور على أولادي، هذا بجانب

قبول دعوات احتفالات أعياد الميلاد التي تأتيهم من أصدقائهم في المدرسة. فظننت أن هذا تعويض جيد لهم.

مع مرور الوقت وانشغالي أكثر بالتدريب والدراسة، لم يكن لديَّ متسع من الوقت، ما يسمح لي بالاندماج أكثر مع أصدقاء المسجد، واكتفيت فقط بأصدقاء العمل الأجانب، واكتفى أولادي بأصدقائهم في المدرسة.

لا أخفي عليكم أنني سعدت بهذا الانقطاع عن أصدقاء المسجد، ففي كل الأحوال كان أولادي يتعلمون من أولادهم بعض الأخلاق السيئة، فمن المعروف أن أخلاق أولاد العرب لا تُقارن بأخلاق أولاد الأمريكان.

فقط اكتفيت باشتراكهم في مدرسة العربي والقرآن في الويك إند في المسجد، كنت أوصلهم إليها، وأذهب سريعًا للتسوُّق، ولقضاء بعض المشاوير لمدة ساعتين، وأرجع لأخذهم إلى البيت.

لعلكم تسألون أين زوجي في كل هذه القصة؟؟

بالنسبة إلى زوجي، فهو لم يكن معنا طول الوقت، دائمًا مشغول، العمل هنا مرهق جدًّا، وخصوصًا للرجال الطموحين والمجتهدين.

فهو دائمًا في العمل ويرجع البيت ليلًا وقت نوم الأولاد، أو يعمل في غرفة المكتب ويريد الهدوء، في بعض الأحيان لا يلتقي مع الأولاد أبدًا لعدة أيام، حتى في إجازة نهاية الأسبوع كان لديه ما يشغله.

نجتمع فقط في إجازة نهاية العام إذا قررنا السفر إلى مصر في إجازة

الصيف، حتى هذه الإجازة لم تكن طويلة قطُّ، فهي لا تتعدَّى بعض الأسابيع القليلة كل عدة أعوام.

حتى في هذه الإجازة كان أولادي لا يشعرون بالراحة، فأولادي لا يستطيعون الحديث بالعربية، ما كان يعوق التعامل معهم هناك، فكانوا يتعاملون معاملة السياح.

فوالدهم غالبًا لا يعلم عنهم شيئًا، فلنعتبر أنه ليس له وجود في هذه القصة.

حتى أنا أيضًا كنت مشغولة عنهم في دوَّامة الحياة والعمل، فكنت أضعهم في بعض الأنشطة ما بعد المدرسة؛ حتى أستطيع الانتهاء من عملي، وأرجع لآخذهم من المدرسة، والذهاب بهم فورًا إلى البيت لتناوُل وجبة الغذاء، وبعدها الذهاب إلى التمارين، وبعد رجوعنا إلى البيت يخلدون إلى النوم.... هكذا كان يومنا.

لا أعلم كيف مرت السنوات سريعًا، سنة وراء سنة...

كبر الأولاد فجأة وتبدل حالهم، وظهرت مشكلاتهم التي لم أكن أعلم عنها شيئًا، لم يعودا أولادي المطيعين المُسيَّسِين..

ماريا بدأت ترفض الملابس التي أختارها لها، بل تختار الملابس القصيرة والضيِّقة مثل زميلاتها.

اكتشفت بعدها أنها على علاقة بصديق لها.

ويوسف أيضًا له أصدقاء بنات، يخرج في أيّ مكان يحلو له، وعلمت أنه يشاهد بعض المواقع الإباحية.

التعليق:

في هذه القصة لن أتحدث في التعليق عن طرق التعامل مع الأولاد، فقط سأركِّز على التحديات والضغوط التي يواجهها المربِّي في البلاد الغربية.

فلكي تستفيد من هذه القصة، يجب تجنُّب هذه الأخطاء، بجانب الاستفادة من الأخطاء في باقي القصص معًا.

من الأخطاء التي ارتكبها الآباء في هذه القصة:

– الانبهار الزائد بالغرب.

من الأخطاء الخطيرة والمنتشرة كثيرًا بين المغتربين هي الانبهار الزائد ببلاد الغرب، واعتبار أنهم مصيبون في كل شيء، ولا يُخطئون أبدًا، مما يؤدي إلى انهزام حضاري للمغترب، وشعور دائم بالدونية مقارنةً بهم، فإذا سمعوا أي رأي أو قاعدة أو طريقة للأجانب يتبعها، ولا يشك لحظة أنها من الممكن أن تكون خطًا يتعامل معه، كأنه كلام مقدس.

كل هذا من ثمَّ يؤدي إلى انهزام حضاري للأولاد، فيقومون باتباعهم دون تفكير في الخطأ قبل الصواب، ويُحقِّرون من ثقافتهم الأصلية.

– التفريط في الدين في سبيل الاندماج.

إذا اختار أي إنسان أن يقيم في بلاد غربية، يجب عليه أن يعترف ويتقبَّل فكرة أنه مختلف، وسيكون اختلافه دائمًا.

فليس من الحكمة ترك الهوية الإسلامية (من لبس حجاب أو القيام

بالشعائر الإسلامية) في سبيل الاندماج وتقليل الاختلاف، فقط كل ما سيحدث هو أنهم سيعرفون أنك غير معتز بدينك، وذو شخصية ضعيفة، لكن لن يُغيِّر هذا الأمر شيئًا، فستظل في نظرهم عربيًّا، مسلمًا، ذا لهجة مختلفة، من بلاد مختلفة.

فقط أنت الخاسر؛ لأن الله لن يبارك في شيء فضَّلته على تعاليم الإسلام.

– البُعد عن المجتمع الإسلامي.

من أكثر الأشياء التي تُعِين في الغربة هي الصحبة الصالحة، فهي تقوم مقام الأهل، فعند سفرك في الخارج يجب عليك اختيار صحبة صالحة تُذكِّرك عند النسيان، تُوجِّهك عند الخطأ، تدعمك أنت وأولادك. فتجد دائمًا من هو مثلك بنفس خلفيتك وعاداتك وتقاليدك، فتجد من يُعينك ويُعين أبناءك على عدم الانغماس في المجتمع الغربي.

ففي القصة تركت الأم صحبة المسجد بحجة أن أولادهم ليسوا على القدر الكافي من الأخلاق، وهذه المقولة مشهورة لكل من يسكن في بلاد الغرب، فهم يعتبرون أن أولاد المسلمين والعرب أخلاقهم أسوأ من أخلاق الأولاد الأجانب، وهذا يُعتبر أيضًا من صور الانهزام الحضاري التي تحدثتُ عنها سابقًا.

فهناك التباس في هذا الفهم الخاطئ، فكل إنسان له مميزات وعيوب؛ فإذا كانت بعض مميزات الأولاد الأمريكان ليست موجودة في أولادنا، فالعكس

أيضًا صحيح، فلدينا مميزات ليست عندهم. لكن طبيعة الإنسان هي البحث فقط عمَّا لا يملك، وينسى كل المميزات التي لديه.

– طريقة الدعوة في المجتمع الإسلامي.

في القصة، ساهمت أيضًا طريقة نقد أصدقاء البطلة لها في تنفيرها مما يقولون.

فمن المشكلات الكبيرة في المجتمع الإسلامي في الغرب هي طريقة النصح والنقد، فمن الممكن أن تكون النية خيرًا، لكن الطريقة الشديدة، أو طريقة الاستهزاء، أو اعتبار أنفسهم أوصياء على الآخرين؛ تجعل هناك نفور من الكلام، وفي بعض الأوقات تصْرِف الشخص عن اتباع دعوتهم.

– المشاركة في الأعياد.

الأعياد في البلاد الغربية من أكثر الأشياء التي تجذب الأطفال، ففي بلادنا لم نعتَد على الاحتفال بأعيادنا بهذه الطريقة، من تزيين وتوزيعات حلويات وحفلات كبيرة، وإن كنا لدينا طرقنا الخاصة في الاحتفال بأعيادنا من تزيين الشوارع والبيوت في رمضان، وتوزيع العيدية والحلويات، وصلاة العيد، وزيارة الأقارب، وعمل الكحك والبسكوت.... ففي النهاية الطرق مختلفة في التعبير عن الفرحة، وطبيعي كل ما هو جديد فهو جذَّاب.

فعند سفرك في الخارج ليس من الحكمة استبدال احتفالات الغرب بفرحة أعيادنا وطرق احتفالنا بها، التي هي ليست من الشرع، بحجة أن هذه هي الاحتفالات المتوفِّرة في البلد، وأن أعيادنا تكون في أوقات العمل والدراسة.

فينشأ الطفل على حُب هذه الأعياد، وينسى أعياده الإسلامية.

فيجب الاهتمام بالعيدين، والاحتفال بهما أكثر من أي يوم آخر في العام: أولًا بالاعتذار عن المدرسة والعمل في هذا اليوم مهما كانت أهميته، توزيع الحلويات، التنزُّه، التوسعة على الأولاد، الذهاب لصلاة العيد، وحضور الاحتفالات في المساجد، من الممكن أيضًا الذهاب إلى مدرسة الطفل وتوزيع الهدايا على الطلاب، وتعريفهم بالأعياد، ودعم طفلك في المدرسة.

– انشغال الأم والأب.

بالتأكيد العمل في الخارج قاسٍ ويحتاج إلى مجهود ووقت طويل، لكن ليس هذا معناه الانشغال بالعمل وجمع المال وشغل مناصب عالية في العمل، على حساب ترك الأولاد والأسرة، وعدم الاهتمام بهم.

فيجب ترتيب الأولويات، من هو الأهم من وجهة نظرك....

فالانشغال عن الأولاد، وخصوصًا في بلاد الغرب له أضراره التي لا حصر لها، ففي الخارج ليس لديك أهل يهتمون بأولادك، فأنت المصدر الوحيد لتربيتهم تربية إسلامية، وتركهم طول الوقت للعالم الخارجي معناه التخلِّي عنهم، وعدم الاهتمام بدعم هويتهم.

- ترك اللغة العربية.

بعض الأهالي يعتبرون أن تحدثهم باللغة العربية مع أولادهم، يؤدي إلى ضعف مستواهم في اللغة الإنجليزية وتأخُّرهم عن أقرانهم؛ فيتحدثون معهم بالإنجليزية قبل دخولهم إلى المدرسة.

لكن أثبتت الدراسات أن الطفل يستطيع تعلُّم أكثر من لغة في السن الصغيرة، بل تجعله أكثر ذكاءً.

فأنت المصدر الوحيد للُّغة العربية لطفلك، فإذا تجنَّبت الحديث بالعربية معه؛ ستقطع فرصته في تعلُّم العربية بيدك، ولن يكون هناك فرصة للرجوع لاحقًا.

وفي نهاية هذه القصة أردت أن أعطي بعض الأفكار التي من الممكن تنفيذها إذا كنت تقيم في دولة غربية؛ لدعم طفلك وخلق جو إسلامي حوله:

- زيارة ال public school لتعريف الأولاد المناسبات الدينية.
- التطوُّع في بعض أنشطة المدرسة؛ حتى تُشعر طفلك بدعمك له.
- الاشتراك في أنشطة المسجد القريب مثل summer camps
- عمل نادي أو club للأولاد، وآخر للبنات، حيث يقومون بأنشطة معًا.
- عمل حفلات وتجمُّعات للأطفال والشباب، تحت إشرافكم دون منكرات؛ حتى تغنيهم عن الحفلات الخارجية لغير المسلمين.

أجب بصراحة

- حينما تسمع رأيا سياسيًّا أو طبيًّا أو في أي مجال من الغرب، تؤمن به وتُصدِّقه دون تفكير؟

.....

- هل تستطيعين الخروج بملابسك وحجابك الكامل في الخارج دون حرج؟

.....

- هل تعتقد أن أبناء العرب، وخصوصًا المسلمين أخلاقياتهم أسوأ من الأطفال الأجانب؟

.....

- وجدت صديقتك تُغيِّر من طريقة لبسها وتتخفَّف منه، هل ستنصحينها، وكيف؟

.....

- هل تمانع في المشاركة في الأعياد الغربية حتى على سبيل المرح؟

.....

- كيف تقضي عيدَي الفطر والأضحى؟

.....

- كم ساعة تقضيها يوميًّا مع أولادك؟

.....

- هل تسعى لتعليم اللغة العربية لأولادك أم لا تهتم؟

.....

كلمه أخيرة

بعد قراءتك لقصص الكتاب، بالتأكيد قد قمت باكتشاف بعض الإخفاقات في طريقة تعاملك مع طفلك....

هذه الخطوة هي أهم خطوة في التربية، وهي اكتشاف أخطائك والاعتراف بها.

فبالتأكيد ليس هناك أحد كامل دون عيوب، وليس هناك طفل قد تمت تربيته بالكامل ولا يحتاج لأيِّ تعديل، ومن يتوقع أن طفله هكذا فهو غالبًا «بيضحك على نفسه» أو ليس لديه القدرة على مواجهة أخطائه.

فيجب أن تعلم جيدًا أن طوال الوقت ستجد التحديات في تربية أولادك، وما عليك إلا الاجتهاد في تربيتهم، والاستعانة بالله.

فبعد الانتهاء من الخطوة الأولى، وهي: اكتشاف المشكلات، نأتي إلى الخطوة الثانية، وهي: وضع الخطة أو الخطوات التي ستسير عليها؛ حتى تقوم بتصليح خطئك.

بعدها نأتي إلى الخطوة الثالثة والأهم، وهي: عدم اليأس، ففي بعض الأحيان ستجد طفلك يطيعك ويتحسَّن، وطريقتك الجديدة تنجح معه، وفي بعض الأحيان لن تأتي بالنتيجة المرجوَّة، وتشعر بالإحباط....

فلا تيأس وحاول مجددًا، واستعن بالله لتربية أولادك، وتذكر دائمًا أنك

لست وحدك، كلُّ مربٍّ يمرُّ بهذه التجارب والإحباطات، والناجح هو من يستطيع القيام مجددًا، والاستفادة من أخطائه، والمحاولة مرة أخرى...

وفي النهاية، تربية الأطفال هي توفيق من عند الله، استعينوا بالله على تربيتهم، وادعوا لأولادكم، وادعوا بالتوفيق، وأخلِصُوا النية.....

فهرس المحتويات

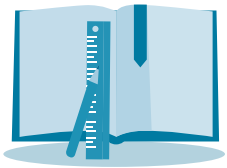

المقدمة 7

الأم ترخي والأب يشد 11

الكمال 32

العناد 39

القسوة وعدم التعاطف 53

الأب المسافر 63

حب الإخوة 77

ولد وبنت 88

التزام الآباء وتفريط الأبناء 99

التربية في الغرب 110

كلمه أخيرة 123

فهرس المحتويات 125

دار البشير